جوزيف كونراد

قلب الظلام

ترجمة: نوح حزين



الطبعة الاولى : بيروت ١٩٧٩


قلب
الظلام

جوزيف كونراد والابحار نحو الذات

عندما نزل القبطان البولندي جوزيف تيودور كونراد كورزينوفسكي الى الشاطىء الانكليزي عام ١٨٧٨ لم تكن حصيلته من اللغة الانكليزية تزيد على بضع كلمات . وبعد ذلك بثمانية عشر عاما كانت روايته الاولى بتلك اللغة في طريقها الى المطابع . ومنذ ذلك التاريخ قلما مر عام دون ان يصدر لجوزيف كونراد وهو الاسم الذي اصبح يعرف به فيما بعد ، رواية أو كتـــاب .

ولد كونراد عام ١٨٥٧ في رديشيف ، وهي مدينة تقع الآن ضمن حدود جمهورية أوكرانيا السوفييتية . وكان والده ابولونايتس كورزينوفسكي شاعرا وطنيا بولنديا نفته السلطات القيصرية الروسية الى بلده فولوغدا لنشاطه السياسي . وفي عام ١٨٦٥ توفي والده ثم والدته عام ١٨٦٩ فانتقل ليعيش عند خاله تاريوز يوربوفسكي حيث بقي عنده حتى عام ١٨٧٤ غادر بعدها منزل خاله في كراكاو الى مارسيليا ليبدأ حياة البحر التي شكلت خلفية معظم أعماله الادبية فيما بعد . وعندما مات كونراد عام ١٩٢٤ نعي كأفضل اجنبي يكتب باللغة الانكليزية التي ظل ينطقها بلكنة اجنبية واضحة حتى آخر أيام حياته . لقد اجتمعت في كونراد حدة السلافيين التي اكتسبها من أصله البولندي ولغته الانكليزية التي اكتسبها بعد العشـــرين فكانت النتيجة كاتباً فذاً وكتابة فريدة .

في الوقت الذي كان فيه ذلك البولندي المغترب يواصل عملية الانتماء الرسمية للمجتمـــع الانكليزي كانت التحـــولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تأخذ اشكالا وسمات جديدة وتفرز بالتالي مضامين وأشكالا جديدة اخرى . فقد شهد الربع الاخير من القرن التاسع عشر اكتمـــال الثورة

الصناعية في اوروبا وهذا يعني بكلمات أخرى وصول البرجوازية الانكليزية ذروة انتصارها وبداية تفسخها في الوقت نفسه . ففي الداخل كانت الطبقات العليا في المجتمع تثبت نفسها اكثر فأكثر في قمة الهرم الاجتماعي الحاكم ، واخذت تتجه من المنافسة المفتوحة الى الاحتكار الكبير . وفي الخارج كانت تتم عمليات افناء جماعيه وممارسات وحشية وعمليات نهب لا مثيل لها . وكان كل ذلك يحدث خلف اقنعة فلسفيه هدفها النهائي تبرير النهب الامبريالي الذي كانت تقوم به تلك البرجوازيات في مستعمراتها البعيدة الكثيرة . ففي انكلترا ظهرت فلسفة جيرمي بتام النفعية وفي المانيا ظهر نيتشه الذي ارتكزت على ارائه اكثر النظريات العنصرية تطرفا . لكن شيئا اخر كان يتحرك في أعماق تلك المجتمعات . فقد ظهرت الى جانب تلك النظريات افكار تنظر لحركة الطبقة العاملة ، وظهرت الحركات لمصالح البورجوازيات الحاكمة .

وبين تعبيري العامل ورب العمل ظهرت تعبيرات البطالة والعاطلين عن العمل . وعرفت الاضرابات وظهر داروين وهكسلي وشو في انكلترا وفي القارة ظهر ماركس وتولستوي وفرويد . ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان التشاؤم والمرارة والهجانية تحل محل مظاهر الثقة التي صنعت معظم النتاج الادبي في العهد الفكتوري ، فظهر توماس هاردي وجون غالزورذي وهنري جيمس وجوزيف كونراد .

ورغم أن كونراد يشترك مع هنري جيمس في نقائه واهتمامه بالجماليات ومع توماس هاردي في تشاؤميته ومرارته ومع غالزورذي بهجانيته وعدم يقينه الا أن وضعه المتميز كبولندي منفي اولا ومعاينته لبشاعات المستعمرين — الذين كان ينتمي اليهم ببشرته البيضاء — ثانيا قد جعلتا منه كاتبا متفردا بين معاصريه من الروائيين الانكليز . وللوصول الى الحقيقة حول كونراد وأدبه يجب وضعه في موقعه الصحيح من كل من المتحولات التي اتينا على ذكرها . تلك التي كانت تموج بها بنى المجتمعات الاوروبية في ذلك الوقت .

ان المدخل الى فهم أدب كونراد يمر بالضرورة عبر أدب روائيين انكليزيين اخرين هما روبارد كبلنغ وهنري جيمس . فهو يشترك مع الاول في كونهما عايشا ممارسات المستعمر الابيض في مستعمراته البعيدة ويشترك مع الثاني في كون الاثنين اول من ارسيا دعائم الرواية الانكليزيه الحديثة كفن ادبي لا يقل شأنا عن الشعر والمسرح .

ومع أن كلا من كبلنغ وكونراد يمثلان وجهتي نظر متعاكستين تماما من ممارسات الاوروبي الابيض في المستعمرات الا ان الاساس الموضوعي للاثنين يكمن في حقيقة ان كليهما ظهر في فترة تميــزت بنوع من الاهتمام المتزايد ــ لاسباب عديدة ــ بتلــك المستعمرات ونوع الحياة التي تعيشها تلك المجتمعات والتوق لكشـــف السر الغامض حــول لقاء اللون الابيض المتفوق بباقي الالوان والاجناس . وقد كان المهد الحقيقي لتلك النزعــة التي تعكس ، ضمن ما تعكس ، أوليات الشعور الاستعماري الممــزوج بنظرة عنصرية فوقية هو تشارلز كينغزلي الذي كتب رواية (الى الغرب) عام ١٨٥٥ . وان كــان مقبولا ان يسافر السيد ميكوبر الــى استراليا لتحسين وضعه الاجتماعي في رواية ديفيد كوبرفيلد التي بدأ تشارلز ديكنز بكتابتها عام ١٨٤٩ فان التغني بأمجاد الرجل الابيض ومنجزاته العظيمــة في تمدين سكان المستعمرات ونقلهم الى العصور الحديثة عبــر اكثر طرق الاستغلال والنهب بشاعة لم يعد مقبولا من روائي وشاعر مثل رديارد كبلنــغ .

وان كان في يقين كبلنغ أن الشرق شرق والغرب غرب وانهما لــن يلتقيا فان جوزيف كونراد أبرز الصورة التي يلتقي فيها الاثنان وهي صورة لم تكن مشرفة بحق المستعمرين البيض على أي حال . فمكان اللقــاء الوحيد هو ساحة النهب . وطريقة اللقاء الوحيدة لا تتم الا من خلال صيغة التسيد والعبودية . ففي المستعمرات خلع البرجوازي لباس الجنتلمان وارتدى زي قاتل أو تاجر او اله . هي الصورة نفسها تغنى بها كبلنغ وهاوسمان وغيرهما وادانها كونراد وشهد اي.ام. فورستر نهايتها فــي روايته « ممر الى الهند » . فالتقاء الشرق بالغرب ممكن ولكن عبــر صيغة أخرى غير صيغة السيد ــ العبد بل عبر صيغة تقوم على المساواة والندية واحترام شرط الانسان عند الطرفين المتقابلين . يقول الناقد الانكليزي ارنــولد كيتل « ان كاتبين هامين فقط نظــراً الــى الامبريالية وجها لوجــه كبلنغ وكونراد وقد أكسبتهما تجربتهما حيوية يفتقر اليها بوضوح كتاب عصرهما . لكن كونراد وحده نظر الى الامبريالية بأمانة كافية جعلته فنانا عظيما . » فبينما كانت الحقيقة الاساسية لدى كبلنغ هــي الرجل الابيض كانــت الحقيقة الاساسية لدى كونراد هي الانسان . وليس هنالك من يزعم أن كونراد كــان يلتــزم موقفا سياسيا ما لكــن معظم اعمالــه تشي بكون الامبريالية ــ التي لم يستخدمها بالاسم ابدا ــ كانت هما مركزيا في اعماله

التي غالبا ما كان مسرحها المستعمرات الاسيويه والافريقية والامريكية الجنوبية . ان سطوع المثال الانساني في روايات كونراد هو المدخل الى كونه فنانا عظيما ومعاديا للظلم والنهب والاستغلال والتدمير وهذه كلها اسماء اخرى للامبريالية . وقد قال مرة بعد رحلته الى الكونغو التي قام بها عام ١٨٩٥ « قبل رحلة الكونغو لم اكن اكثر من حيوان » ففي تلك الرحلة رأى حقيقة اللقاء بين الحضارتين البيضاء والسوداء وكانت الشهادة الصادقة في كلمتي « الرعب ، الرعب » اللتين تلخصان ذروة اللقاء . انهما كلمات كونراد قبل ان تكونا كلمات « كورتز » في « قلب الظلمه » .

من جهة اخرى جاء كشف كونراد لحقيقة الامبريالية عبر موقفه الاخلاقي المغلف بتجربة ذاتية حزينة قوامها التيتم والتشتت وعدم الاستقرار واخرى موضوعية تقوم على معاينة قبح الامبريالية والاستعمار سواء كان هذا الاستعمار قيصريا أم انكليزيا او أوروبيا وبصرف النظر عن كون المستعمر (بفتح الميم) بولنديا أم ارلنديا ام افريقيا . يقول كونراد عن نفسه في « سجل شخصي » « ذلك الجو الاخلاقي والعقلي للبيوت التي آوت طفولتي المجازفة كان متصفا بنظرة حيادية للبشرية بكل درجات روعتها وبؤسها مع تقدير خاص لحقوق المحرومين على الارض ليس على أساس غيبي بل على أساس الزمالة البسيطة والتبادل المشرف للخدمات » . هكذا يطرح كونراد تصوره للبشرية ، وهي كلمة كبيرة مطاطة ، بكلمات اميل الى السذاجه الا ان ارتباطها بأخلاقياته وفنه واضحة تماما . « ان الموقف الاخلاقي يجب ان يكون هدف كل قصة » كتب مرة يقول . ومع انه لم يوضح كيف يفهم الموقف الاخلاقي الذي يدعو اليه ، الا أن محاولاته الروائية كلها كانت بحثا عن ذلك الموقف الاخلاقي . أن فهم كونراد للاخلاقي لم يأت نتيجة لفلسفة نظرية او لحالة تأمل بل جاء « عبر صراعه مع الحياة » كما يقول كيتل . جاء عبر رصده لآلية التعامل بين المستعمرين الاوروبيين وابناء المستعمرات ، عبر تعاطفه مع قضايا المظلومين والمضطهدين وعبر بحثه الدائب عن الحقيقة واستعداده الكبير للحب والتعاطف .

ومن جهة ثانية فان اخلاقيات كونراد مرتبطة بنقطتين هامتين هما الحقيقة التي كانت لديه تعني اخلاقيا الامانة وفنيا الواقعية ، ثم الطبيعة البريئة التي كانت صفة ملازمة له . كتب كونراد « ان الفنان ـــ مثل العالم والمفكر ـــ يبحث عن الحقيقة ولكن بينما يتوجه الاول والثاني الى قابليتنا

للتصديق ينزل الفنان الى أعماق من ذاته ، تلك المنطقة الموحشة من الضغط » ويضيف « ان نداء الفنان اقل ارتفاعا واكثر عمقا واقل وضوحا وأكثر تحريكا للوجدان واسرع للنسيان من نداء المفكر او العالم لكن أثره يبقى للابد » . انه لا يبحث عن الخلاص الفردي كالملاح التائه لكنه يبحث عن الحقيقة ، كالمفكر والعالم وبكلمات اخرى انه يعي دوره كفنان في آلية المجتمع « أن مهمتي هي ان اجعلكم (القراء) ترون ولا شيء اكثر من ذلك » لان ما هو اكثر من ذلك يخرج عن مهام الكاتب ومسؤوليته ليصبح مسؤولية فئات وقوى اخرى . ومن جهة ثانية فان هاجس الحقيقة لديه تحول الى واقعية فنية من طراز فريد اسماها الدكتور ف.ر. ليفيز (الواقعية السيكولوجية) ويسميها د. طه محمود طه الواقعية الرومانتيكية . فما يبدو للوهلة الاولى وصفا خارجيا بحتا مليئا بالتفاصيل الجزئية للشخوص أو المشاهد هو في حقيقته مدخل كونراد الى اعماق الشخصيات ونفسياتهم وسلوكهم فوصفيته لا تترك انطباعا بأن العالم المادي المحسوس معزول عن عالم النفس البشرية . ويعتقد الناقد الفرنسي البيريس أن (رواياته تسعى الى خلق تأثير خلف حياة سطحية) ويضيف بأن (هذا يعد اكتشافا للانطباعية قبل ان تتبلور نظرية بعد عام ١٩٢٠) . وحتى رمزيته وتصوره الاخلاقي للاشياء فانها لا تكون فاعلة الا بقدر ما تكون واقعية . فرمزيته تغذيها على الدوام اصوات تسمع واشياء تلمس وترى أو تبدأ بالظهور . ويمضي الدكتور ليفيز ليقول بأن « حقيقة الوصفية الكونرادية القائمة على الواقع هي التي تعطي قيمة قد توازي حذق دوستويفسكي وايغاله الى قلب النفس البشرية يرجع الى شجاعته وحبه للمغامرة واستعداده الكبير للتفتيت واعمال السكين بحثا عن الحقيقة وكل هذه الامور يفتقدها كونراد الذي يكتفي بالمراقبة ثم « يجعل القراء يرون ولا شيء اكثر من ذلك » .

تلك هي النقطة التي تأخذه بعيدا عن مثالي دوستويفسكي وكافكا باعتبار الثلاثة ابرز من كتب عن العنف الداخلي والرعب الانساني الاقرب الى المطلق منه الى المحكوم بشرطي الزمان والمكان . فتصورات دوستويفسكي لهذا الرعب تقوم على واقع ملموس يعبر عنه بتتاليات نافذة البصيرة تقترب من الهلوسة اما كافكا فينبثق الرعب الانساني من اعماله عبر صنمية تغلف الاحاسيس الآنية واليومية في عالم اقرب الى عالم الدمى . ومقارنة بهذين الاثنين يبدو كونراد بريئا يخشى ملامسة الاشياء

ويكتفي بالوصف التفصيلي للاجواء التي تخيم فيها روح الشر ولعل المثال الاقوى على ذلك هو وصفه للحفلات الجماعية التي تقدم فيها الطقوس والقرابين البشرية للاله الابيض كورتز في « قلب الظلمة » . « كان الزعماء يأتون اليه كل يوم للزياره ، ويزحفون .

ــ « لا أرغب في معرفة شيء عن الطقوس التي كانوا يؤدونها لدى الاقتراب من كورتز صرخت قائلا » .

انه ليس على استعداد لان يقودنا الى منطقة الرعب القاسي بل يكتفي بالنظر اليها بمنظار مكبر .

كونراد والرواية الحديثة

من بين معاصريها من الكتاب لم تمتدح الروائية الانكليزية فرجينيا وولف سوى جوزيف كونراد « لقد كان ابنا للقرن العشرين قبل ان يطل القرن » ان اسم كونراد يرتبط مع اسم هنري جيمس باعتبار أنهما اول من أرسيا دعائم الرواية الحديثة .

يقول ارنولد كيتل « ان هنري جيمس هو العلامة الرئيسية باتجاه ما عرف باسم التجارب الحديثة في اوائل القرن العشرين ، باتجاه بروست وجويس وفرجينيا وولف » وعلى اية حال فان العلامة التالية هي جوزيف كونراد نفسه . وان كان جيمس هو روائي مرحلة التفسخ البرجوازي فان كونراد هو روائي مرحلة التفتت الكامل الذي ميز أوجها عديدة في حياة القرن العشرين . « مع كونراد نحن في القرن العشرين » يقول كيتل . وهو هنا ليس معنيا بتحديد الزمان بقدر ما هو معني باغناء المثال بالدلالات التي بدأت تتبلور في هذا القرن . فمع بداية القرن العشرين تأكد الفصل بين الشعبي والجيد وتعقدت آلية الحياة فتعقدت عملية الكتابة بشكل اكبر وتحولت معركة الكاتب مع الواقع المكتظ الى معركة مع المادة الخام التي تشكل صلب العمل الفني حتى بلغت الذروة عند جيمس جويس كروائي وعند ازرا باوند و ت.س. اليوت كشعراء .

يقول لينارد وولف « لم تبد الاحوال الاجتماعية مثيرة للخوف او خطرة قبل عام ١٩٠٠ . لكن حقيقة ما حدث هو ان الاحوال التي يتحدث عنها قد طغت على السطح مع بداية القرن لكنها كانت تتلاحم هنا وهناك في كتابات عظماء الرواية الواقعية الانكليز مثل الاخوات برونتي اللواتي كتبن عن

الانحلال الداخلي للبرجوازية الانكليزية وزيف اخلاقياتها . وقد تابع هنري جيمس الكتابة منوعا حول موضوعه الاثير في الصراع بين البراءة والسذاجه وبين الخبث والزيف والرياء بأسلوب نثري متطور . اما كونراد فقد خلت رواياته تماما من ملامح الثقة والكمال التي كانت تميز ادب العصر الفكتوري وصور في المقابل الخواء الداخلي للافراد وارخ للقضايا الخاسرة وكشف الوجه الاقبح للامبريالية . وان كان هنري جيمس قد طور اسلوبا نثريا خاصا به فان كونراد قد نظر بتخصيص اكبر لقضية الاسلوب فهو يرى « أن على الرواية ان تهتم بشكل الجمل وزينتها وباعادة السحر الى الكلمات التي بليت وشوهت نتيجة الاستعمال السيء على مر العصور » وكانت هذه الكلمات تعبيرا عن الروح الادبية الجديدة التي اخذت تسود المشهد الادبي الانكليزي في بدايات القرن العشرين .

كان هنري جيمس يحاول ابتكار اسلوب روائي حديث لتقديم التفاصيل الصغيرة المترابطة التي تشكل نسيج الحدث الاكبر . « عند جيمس لم تكن هنالك حادثة مصادفة ولم يكن هنالك شيء غير واع فهذا ما لا يحتمله استكشاف الافاق الابعد لوعي مصقول » يقول كيتل ، اما عند كونراد فان التفاصيل الصغيرة كانت تفعل باتجاهين ، الاول للكشف عن دخيلة الشخصية والثاني ليأخذ مكانه ضمن النسيج الفني المترابط للرواية . ويوظف كونراد كل الامكانيات المتوفرة لديه وخاصة ثراءه اللغوي وبصيرته النفاذة وقدرته المدهشة على الوصف في خلق الجو الذي تتحرك داخل اطاره شخوص العمل الفني واحداثه . فجو « لورد جيم » مكفهر يلفه الظلام لا تلتمع فيه سوى السنة اللهب ولا يرى فيه سوى الحطام ، وتزداد وصفية كونراد تعقيدا لتحيط بكل الدلالات التي توحي بالاقتراب من كورتز في « قلب الظلمة » وتزداد الالفاظ تعقيدا ويعلو رنينها لتخلق معادلا داخليا للعاصفة في قصة « الاعصار » .

ويلعب البحر دورا فعالا في معظم اعمال كونراد ، ورغم انه لم يكن يحب ان يسمى (كاتب بحر) الا ان تلك حقيقة تسحب نفسها حتى على نفسيات شخوصه ومسلكهم . فهم يبدون وسط ذلك المحيط المائي كتجريد لمجتمعاتهم التي قدموا منها كما في زنجي النرجس ولورد جيم . يبدون هناك وكأنهم في معمل للكشف عن نفسياتهم . فبالنسبة لكونراد لم تكن صورة البحر هي الصورة الرومانتيكية التقليدية بل كانت تجسيدا لمأساة الوحدة الفردية حيث يواجه الانسان الطبيعة الثائرة وجها لوجه مجردا

من كل معطياته الاجتماعية فتبدو لديه كل الامور مجسمه وكل المواقف حاسمه ويزداد الاحساس بالذنب نتيجة الابتعاد عن المجتمع الذي يقوم عادة باصدار الحكم على السلوك والتصرفات .

الا أن تجديد كونراد الرئيسي الذي لم يسبقه اليه احد في الرواية الانكليزية يكمن في ابتكاره للعقدة المزدوجة للرواية وسيرها على أكثر من مستوى كما في نوسترومو وقلب الظلمة ولورد جيم . ويقوم الاسلوب الذي يقود الى هذا التكنيك على الاغراق في الوصف التفصيلي كما ذكرنا سابقا الى جانب اعتماده على تعدد رواة الحدث الواحد « ليؤسس على تجريبية النماذج الهامة ، ويبقي الحقيقة الوحيدة في قلب التجربة الفردية غامضة محيرة كما يقول ديفيد ديتشز .

ويبقى الحديث عن كونراد ناقصا دون الحديث عن لغته الوصفية الرائعة وعن قدرته المذهلة في التعبير عن المثال الانساني الذي يقدمه .

يقول فورد مادوكس فورد الكاتب الانكليزي الذي اشترك مع كونراد في اعداد كتابين له « اتفقنا على التالي : ان الوظيفة الاولى للاسلوب هي جعل العمل ممتعا والوظيفة الثانية للاسلوب هي جعل العمل ممتعا والوظيفة الثالثة للاسلوب هي جعل العمل ممتعا والوظيفة الرابعة للاسلوب هي جعل العمل ممتعا » في تلك الفترة كانت معركة الكاتب مع مادته الروائية هي الاساس الذي قامت عليهحركة التجديد في الرواية فظهر الاسلوب كقالب فني تصاغ فيه المادة الادبية على ايدي جيمس وكونراد كما اسلفنا . وحتى يومنا هذا يوضع بعض ما كتبه كونراد من نثر بين اعظم ما كتب باللغة الانكليزية ويصف البرت جيرارد كونراد بأنه افضل كاتب نثري باللغة الانكليزية على الاطلاق . وان كانت روايته الاولى تعكس صراعه مع لغة يعاني في تطويعها فان اعماله الاخيرة تعكس المدى الذي وصل اليه في تمكنه من تلك اللغة. ويشير ت.س. اليوت الى اهمية لغة كونراد في رواياته المبكرة لانها « تكافح من اجل هضم المواضيع الجديدة ومجاميع المواضيع الجديدة والمشاعر الجديدة والاوجه الجديدة والتعبير عنها » ويعزو مارفن مدريك تكرار كلمات قريبة الايقاع او قريبة المعنى في اسطر قليلة الى غرابة جرس اللغة الانكليزية على سمعه كأجنبي . بينما يرد كتاب صدر باللغة البولندية هذه الظاهرة الى أن كونراد كان يكتب باللغة الانكليزية ما يفكر به كبولندي وانه كان يضيف الى الاسماء صفات تبدو نافرة باللغة الانكليزية الا انها كانت تنتج تعابير

مبتكرة وجديدة على اللغة الانكليزية . وتجدر الاشارة الى ان في هذا ما يفسر نجاح روايته (الشقيقات) بشكل كبير في موطنه بولندا في حين انها لم تنجح في طبعتها الانكليزية . فلقد ظل كونراد حتى النهاية يكتب بلغة انكليزية وقلب بولندي . وبقيت حقيقة كونه بولنديا تؤثر على اكثر ميزاته الادبية خصوصية .

« فيما يتعلق بالاسلوب كان أساتذتنا العظماء هما فلوبير ثم وبدرجة اقل موباسان » يقول فوردم فورد . وكان اكثر ما يشد كونراد الى فلوبير تلك القطع النثرية الطويلة المنمقة التي يتضح اثرها السلبي احيانا في لغة كونراد والتي تنزل الى مستوى الانشائية في بعض القطع . لكن ذلك هو الاستثناء وليس القاعدة . فان مما يحسب له انه كان يهدف على الدوام الى استعمال الكلمة الموحية المثقلة بالرمز الغنية بالدلالة المتناسقة الايقاع . ان قوة التعبير المدهشة عنده تمزج الحسي بالمطلق وترتقي بالجملة الاخبارية العادية الى مستوى التأمل الشعري مثل « عندما جاءت الفرصة اخيراً لرؤية سلفي كانت الحشائش من الطول بحيث اخفت عظامه » .

وفي احدى المحاولات الذكية لتقطيع فقرة من قلب الظلمة يكتشف فوردم فورد ان هذه الفقرة ما هي الا شعر مرسل شكلا ومضمونا . « كانت تشمخ برأسها عاليا / بشعرها الذي سرح على شكل خوذة / وكانت ترتدي صفا من الخلاخيل النحاسية وصل حد الركبة / وفي يدها صف من الاساور الدقيقة النحاسية وصل حد الكوع / وقد زينت خديها الاسمرين المائلين الى الصفرة بقعتان قرمزيتان » .

ويخبرنا فورد ايضا ان كونراد قد حاول كتابة شعر باللغة الفرنسية التي ربما كان يجيدها اكثر من الانجليزية ، لكنه كان يوافق اخيرا على ان « صلاحية اللغة الفرنسية لكتابة الشعر اسوأ من صلاحية اللغة الانكليزية لكتابة النثر » .

قلب الظلمة

عندما كان صغيرا في بولندا نظر كونراد الى خارطة العالم واشار بأصبعه الى الكونغو في وسط افريقيا وقال « عندما اكبر سأذهب الى هنا » وفي عام ١٨٨٩ تولى امرة زورق بخاري في نهر الكونغو التي كانت انذاك مسرحا للنهب الامبريالي . وبعد ذلك بعشرة اعوام انتهى كونراد من تسجيل احداث تلك الرحلة في واحدة من اعظم رواياته « قلب الظلمة » .

بعد عودته من الكونغو قال كونراد « قبل رحلة الكونغو لم اكن اكثر من حيوان » لقد عانى بعد عودته من أزمة نفسية وروحية عميقة كان سببها ما شهده من وحشية ورعب وبشاعة . لقد عاد من رحلة الالف ميل نحو قلب الكونغو يحمل قلبه المحطم ذكرى القوة التدميرية لعنف ووحشية والوهية الرجل الابيض تجاه الوطنيين السود . ويذكر كونراد في كتابه عن تلك الرحلة والذي نشر مؤخرا في الولايات المتحدة تحت اسم « ايام كونغولية » (اشعر ان حياتي بين هؤلاء — البيض — لن تكون مريحة وسأحاول ان اتجنب التعرف عليهم بقدر ما أستطيع) . كانت تلك الازمة وليدة الشعور بالاشمئزاز من البيض وعدم قدرته على تقديم ما هو اكثر من التعاطف الكبير مع الوطنيين السود . ويبدو ان ما لم يفعله كونراد فعله روجر كيسمنت البحار القادم من ايرلندا المستعمرة البريطانية العريقة. فقد كان كيسمنت يعمل معه على نفس الزورق البخاري وكان تأثير الرحلة عليه شبيها بتأثيرها على كونراد فقد اصبح كيسمنت فيما بعد احد قادة الثورة الايرلندية وكان من بين من اعدموا اثر فشل الثورة هناك عام ١٩١٦ .

ان اول ما يشد القاريء الى قلب الظلمة هو ذلك البناء المحكم للرواية وسيرها على اكثر من مستوى بتناسق مدهش حيث تتقاطع تلك المستويات وتتوازى وتفترق لتلتقي ثانية دون ان تخل بالنسيج الاساسي للرواية بل على العكس تزيد من احكام وجمال بنائها الهندسي . فعند كونراد ليس هنالك ما يحدث صدفة ولا تقال جملة عبثا . فجمع الرجال فوق المركب الجوال (نيللي) يجلسون — بأوضاع مرسومة — عند ملتقى نهر التيمز بالبحر حيث كان المغامرون وفرسان البحر الانكليز يخرجون الى العالم لينشروا فيه العلم والمعرفة والدين والرعب والذعر والدمار وفي الافق بدا ضباب قاتم كالحداد يتكثف لتطغى على المشهد بعدذلك قتامة مبهمة تمهد لقصة مارلو التي تشكل العصب الاساسي للرواية :

« وكان هذا ايضا » قال مارلو فجأة « احد الاماكن المظلمة على الارض » ومن ملتقى التيمز بالبحر تبدأ رحلة الرجال مع قصة مارلو نحو قلب افريقيا السوداء لتنتهي « تحت سماء ملبدة بالغيوم بدت متجهة نحو قلب ظلمة عظيمة » وبين هذين المشهدين القاتمين يروي مارلو اكثر القصص ترويعا وقتامة ، قصة الوهية كورتز وخراب قلبه وولوغ مارلو في التجربة المشابهة الى ما قبل النهاية بقليل وخروجه منها محطم القلب . منذ البدايه يضعنا كونراد في جوف المأساة وتصبح الظلمة المحيطة رابطا

موضوعيا بين مستويي الرواية الرئيسيين ، مستوى الجلسة على التيمز الذي تستقر رواية مارلو لقصته والمستوى الحقيقي الذي استغرقته الرحلة بالفعل وعند النهاية تكون الظلمة الحالكة هي كل ما نرى ويضحي النظر الى الداخل او الى الجوار سواء وقد نغمض اعيننا لنرى في اي زاوية منا تقبع تلك البقعة المظلمة ويصبح اكثر ما نطمح اليه هو الحرية في اختيار كابوسنا الخاص .

تبدأ الرحلة من التيمز لتتشعب نحو التاريخ حين اتى الرومان نحو قلب الظلمة الخاص بهم — بريطانيا في ذلك الوقت — ونحو الكونغو ، قلب القارة السوداء ونحو الوحش الكامن في عمق الانسان ونحو الداخل لاكتشاف الذات بالنسبة لمارلو . نحو كورتز رسول التقدم الاوروبي الذي حطمه عداؤه المرير للحضارة البدائية في قلب افريقيا لكنه انغمس بها الى ان اصبح عبدا ذليلا لها . ويكون مارلو شاهد ذلك الانحطاط العظيم .

وقد اعتمد كونراد على تكنيك ذكي للامساك بكل تلك الخيوط والتشعبات . فهذه العناصر كلها حاضرة في المركب الجوال (نيللي)كرمز للابحار نحو التاريخ ونحو القارات البعيدة . فالمركب او السفينة هي الوسيلة التاريخية للابحار نحو البلاد الغريبة،وهي وسيلة الكشف والمغامرة والاستعمار وهي مكان للاسترخاء والهروب من العناء والمشقه . وقد جعل كونراد الراوي شخصية ثانوية جدا يقتصر دوره على تقديم مارلو الذي يقوم برواية القصة الاساسية . قصة الانحطاط الامجد للاله البشري كورتز في قلب قارة الظلام . ولم يكن استخدام هذا التكنيك شكليا بل كان موظفا لخدمة البناء الروائي اساسا فكون الراوي شخصية ثانوية يخدم هدف متابعة مسير كل من مارلو وكورتز عن بعد وخلق التقابل الاساسي في الرواية بين مستوى الحاضر — القصة التي تروى — ومستوى الرحلة الى الكونغو بما بينهما من تقابل واختلاف .

ان شخصية كورتز الذي لا نلتقي به ، الا في الصفحات الاخيرة من الرواية هي مركز الحدث وملتقى الشخصيات . ومنذ الصفحات الاولى تبدأ روح كورتز بالدخول رويدا رويدا لتسيطر على المكان بحضورها الطاغي . وكورتز هو احد موظفي شركات تجارة العاج الاوروبية في اعلى الكونغو وكان على مارلو اعادته بعد ان استقل عن الشركة والّه نفسه على الوطنيين السود . وتشكل الرحلة اليه صلب الرواية وهيكلها .

تبدأ معرفة مارلو بكورتز على انه افضل موظفي الشركة ، ثم يمضي

صاعدا الى اعلى النهر ليعرف المزيد عنه . فكورتز ايضا خطيب وكاتب وشاعر وفنان ورجل عظيم ووغد وشيطان ومثير للرعب واله بلا حدود . ويلتقي به مسكينا محتضرا يصارع من اجل ان يبقى الى أن يموت بزفـرة تلخص حياة الرعب التي عاشها .انه احد اولئك الرجال الذين لا يمكـن اختصارهم بكلمات . انه فرد ونمط في الوقت نفسه . « لقد اسهمت اوروبا كلها في صنع كورتز » يقول مارلو . فهو تجريد للطبقة البرجوازية الاوروبية وتجسيد للروح الفردانية التي خرجت من رحمها . لكن احتضاره الاخير احتضار لها وموته موت لتلك الروح الجامحة الفارغة القلب .

وخلال الرحلة يجد مارلو نفسه سائرا في طريق كورتز وتفاجئه رؤياه للشر واكتشافه لذاته وهي تغرق رويدا رويداً فيه وتأتي اللحظة التي يكتشف مارلو فيها ذاته في نقيضه كورتز الذي يلتقي به وهو يحتضر محاطا بعلائم حضارة بدائية نخرة ويستيقظ على حقيقة مرعبة ، هي انه البديل الموضوعي لذلك الحطام البشري . لكنه يتجنب مصيره فيمضي الى عزلة روحيـة كئيبة . لقد كانت تلك التجربة بالنسبة لمارلـو مدخله الـى عالم الرشد فأحدثت لديه وعيا كاملا بالشروخ الاجتماعية التي تحكم مجتمعه البعيد . ويتحول مارلو المغامر المستفز المقبل على الحياة الى شخص معـذب منكفيء على ذاته ويرى صورة السخرية المرعبة في كل الوجوه :

« وجدت نفسي مرة اخرى في المدينة الكئيبة يغيظني منظر الناس الذين يسرعون الخطا لتحصيل بعض المال مـن بعضهم بعضا ، لالتهام اطعمتهم التافهة ، لتجرع بيرتهم الكريهة ولرؤيـة احلامهم السخيفة . لقد أقتحم افكاري اولئك الدخلاء الذين لم تكن معرفتهم للحياة بالنسبة لي غير ادعاء يثير السخط لانني كنت متأكدا من جهلهم بالاشياء التي أعرفها ».

« لم تكن لدي أدنى رغبـة في تنويرهم ولكنني عانيت من بعض الصعوبة في منع نفسي من الضـحك في وجوههم التي تفيض اهمية حمقـاء » .

« واعترف بأن سلوكي لم يكن مبررا ولكن درجـة حرارتي نادرا ما كانت طبيعية في تلك الايام ولم تفلح محاولات خالتي العزيزة في معالجة قواي . فلم تكن قواي بحاجة الى علاج بل ان خيالاتي هي التي كانت بحاجة الى تهدئة » .

لقد شهد مارلو كيف يتحول الانسان الى اله تقدم له القرابين البشرية وتقام له احتفالات الذبح الجماعية وشهد الوحش يخرج من اعماق كورتز: الموظف ، الموسيقي ، السياسي ، العاشق ، الخطيب المغامر ، الصحفي

ويتركه بلا قلب . انها احدى حقائق الاستعمار الاوروبي الذي يجعل من الانسان مسخا او الها لكن الوهيته تبدو هشه بلا معنى بدون العاج . وحين يجرد كورتز من عاجه و « اهدافه النبيلة » و « خططه العظيمة » وهي كلها عبارات رنانة يختفي خلفها الواقع البشع للعلاقة البشرية ضمن الاطر الاستعمارية لا يبقى منه غير صوت جهوري وجسد اجوف تتردد فيه اصداء بلاغته العظيمة حول « ابادة المتوحشين » :

« صوت ، صوت ، تردد عميقا في الاغوار ، بقي بعد ذهاب قوته ليخبيء ظلمة قلبه القاحلة في ثنايا بلاغته العظيمة » .

انه الآن احد « الرجال الجوف » الذين لا يملكون غير الصوت ، وفي النهاية يذهب الصوت ايضا فماذا يتبقى بعد ؟ يتبقى آلاف المستعمرين الذين يحتوي كل منهم على جانب من كورتز . يبقى القبطان والبحار الروسي وموظفو المحطات العديدة والحجاج المؤهلون لمواصلة دور كورتز . وحتى بعد أن يتجنب مارلو مصير كورتز يجد نفسه صالحا في لعبة الكذب التي يمقتها . فمتطلبات الحياة المتحضرة لا تحتمل الكثير من الصدق . ان الصدق هو لحظة تنوير اخيرة يموت بعدها الرائي او يتحول الى جزء في آلية الحياة المنغمسة حتى القلب بالكذب والخداع . وحين يرى كورتز الحقيقة يفقد الصوت مركز البلاغة العظيمة ويصدر حكمه بزفرة معذبة :

« أتراه عاش حياته ثانية بكل تفاصيل الرغبة والغواية والاستسلام خلال تلك اللحظة السامية من المعرفة الكلية ؟ وصرخ هامسا الى صورة ، الى طيف . صاح مرتين صيحة لم تكن اكثر من زفرة .. الرعب ، الرعب » .

ولكن حين يقابل مارلو خطيبة كورتز وتطلب منه أن يخبرها بآخر كلمات نطق بها :

« انني .. أريد .. شيئا أحيا به » .

كنت على وشك الصراخ بها الا تسمعيها ؟ كان الغسق يكررها همسة ملحاحا حولنا . همسة بدت تكبر متوعدة كالهمسة الاولى لريح صاعدة الرعب ، الرعب » .

لكن مارلو لا يقول الحقيقة ويعطيها كذبة لتحيا بها :

« وازنت نفسي وقلت ببطء :

ـــ كان اخر ما تفوه به هو اسمك » .

ان متطلبات الحياة المتحضرة لا تحتمل الكثير من الحقائق . فبقدر ما يكون الشخص انسانيا بقدر ما يكون مرعبا ، ويتلوث كل السود

الذين يتعاملون مع البيض وتبقى الاجساد الهزيلة والزوايا السوداء والعيون الغائرة والرؤوس الجعداء رموزا لوحشية حضارة الرجل الابيض هناك .

« كان من الواضح انهم يموتون ببطء . لم يكونوا اعداء ولم يكونوا مجرمين ولم يكونوا اي شيء ارضي الآن . لم يكونوا غير ظلال سوداء للمرض والجوع مبعثرة في القتامة المخضرة . احضروا من اقصى بقاع الساحل بكل شرعية اتفاقيات الزمن وضاعوا في المحيط غير المتجانس .

وعلى امتداد رحلة الكشف في ادغال الكونغو تتردد كلمة عاج كهمسة سحرية حملتها ريح شريرة تنشر معها السموم لتلوث عقول الرجال وتخرب قلوبهم . فالعاج هو محور الاحداث والمواقف الانسانية . انها المادة التي ترسم لوحة القسوة والعنف وتفسرها لكنها تعجز عن تبريرها :

« وكانت كلمة عاج تملأ الاسماع همسا وتنهدا حتى كأنهم كانوا يصلون لها » .

لكن قلب الظلمة تنتمي الى ذلك النوع من الروايات التي تقرأ على مستويات متعددة ومع ذلك يبقى ذلك التناسق الداخلي هو السمة البارزة لها . ومن امتع الدراسات في هذا المجال دراسة كتبها الناقد الانجليزي ستيفن رايد بعنوان « الطقوس التي لاتحكى في قلب الظلمة » وفي هذه الدراسة يتتبع رايد العناصر الطقسية التي تتناثر نتفا في جسد الرواية لتشكل خلفية متماسكة لا للعناصر الطقسية فحسب بل لاحداث الرواية مجتمعة . وبدراسة تطبيقية متأنية يثبت رايد تطابق تلك الاشارات والعناصر مع دراسة السير جيمس فريزر الشهيرة حول الطقوس البدائية التي ضمنها كتابه « الغصن الذهبي » اي ان التناسق والانسجام في قلب الظلمة يشكل لها منطقها الداخلي الخاص الى جانب منطقها الموضوعي فيما يتعلق بالاشارات الطقوسية فيها .

وبمستوى اخر هنالك تلك السخرية المريرة التي ينتظمها النسيج الفني للرواية . ففي مفارقة ساخرة نرى مقابل فرسان العصور الوسطى الاوروبيين الذين كانوا يبحثون عن كأس الخلود المقدسة مسلحين بالشجاعة والصدق والنزاهة كما صورتهم قصص واساطير تلك الايام ، نرى فرسان عصر الامبريالية يجوبون القارات القديمة والمناطق البدائية للحصول على العاج مستخدمين العنف والقسوة والتآمر والكذب . لقد مسخت الامبريالية كل تلك المثل واستعاضت عنها بحقائقها الخاصة .

واستطرادا لصور السخرية العديدة تصبح المخلوقات البائسة

السوداء اعداء ، وتخوض السفينة الحربية الفرنسية الضخمة حربا مـع الاكواخ البدائية في اول مشهد للقـــاء الحضارتين السوداء والبيضاء ، « فليست قوتكم سوى نتيجة عرضية لضعف الاخرين » . وعندما يعود مارلو يحضر معه أوراق كورتز الشخصيـــة مربوطة برباط حذاء . وتبلغ السخرية ذروتها في لقاء مارلو بخطيبة كورتز حيث تتحول العبارات الى اصوات تعبر عن أي شيء اخر غـــير الحقيقة وتتحول اللغة من اداة للتواصل الى جدران تحول دون فهم احدهما للآخر .

وعلى مستوى التاريخ تتراءى لنا صورة « كورتز آخر » رومانـــي يلبس رداءه الروماني التقليدي وقد جاء الى اعلى التيمز الذي كان فيمـــا مضى قلب الظلمة بالنسبة لهم يبحث عن (فرصته) الخاصة في بـــلاد الظلام البعيدة ، فقد « كان الظلام هنا بالامس » كما يقول مارلو . وعندما تنتهي قصة مارلو ينتبه الجميع الى ان لندن هي الاخرى غارقة في ظلام حالك ويأخذ التيمز صورة الكونغو لتشمل القتامة التاريخ والحاضر معا .

اما على مستوى الرمز فتبقى الرحلة الى قلب الظلمة هي اكثـــر الرموز وضوحا ونجاحا . ولا يأتي هذا النجاح من مقدرة كونراد اللغوية فحسب بل من الحقائق التي تغلف جو الرحلة والتي تتراوح بين الاثـــارة والغرابة والترقب والخطر والرعب ويبقى رمز قلـــب الظلمة هو الاكثـــر سطوعا على امتداد صفحات الرواية . فقلب الظلمة رمز لمكنونات النفس البشرية . انه قلب افريقيا السوداء وقلب كورتز المخرب وقلب الشر الكامن في عمق الانسان في آن واحد .

لقد استفاد ت.س. اليوت من مشهد الابلاغ عن موت كورتز واعتمد فكرة خوائه الداخلي وفراغ قلبه في قصيدتـــه الشهيرة « الرجال الجوف » ليرى فيه رمزا لحضارة أوروبا الخربة . وكان ممكنا لاي باحث ماركسي اخر ان يجد في شخصية كورتز الكثير ليرمز به الى وحدة الانحطاط البرجوازي الاوروبي « فقد اسهمت اوروبا كلها في صنع كورتز » وكما ان هاملت فرد ونمط فان كورتز فرد ونمط ايضا تمتد مقومات وجوده من اوروبا التـــي تشرف على القرن العشرين الى نزعة الشر المجردة التي تسكـــن قلـــب الانســـان .

نوح حزين

مراجع ذات صلـــة بالدراسة

بالعربيـــــة

١) أعلام القصة في الادب الانجليزي الحديث . د. طه محمود طه وكالة المطبوعات . الكويت . ١٩٧٤.

٢) تاريخ الرواية الحديثة . ر.م البيريس . ترجمة جورج سالم منشورات عويدات . لبنان . ١٩٦٧ .

٣) نظرية الرواية في الادب الانجليزي الحديث . مجموعة مقالات . ترجمة د. انجيل بطرس سمعان . الهيئةالمصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ١٩٧١ .

٤) في الادب الانجليزي . لويس عوض . مطبعة الانجلو مصرية . القاهرة . ١٩٥٠ .

٥) فرجينيا وليناردوولف د. طه محمود طه . مجلة عالم الفكر ـــ المجلد التاسع العدد الرابع . الكويت ـــ وزارة الاعلام .

بالانجليزيـــــة

1) Kettle, Arnold. An Introduction to the English Novel. Parts I, II. Hutchinson University Library. U.K. 1951.

2) *Conrad, a collection of critical essays, edited by Marvin* Madrick. Prentice Hall, Inc. Englewood Cliffs. New Jersey.

3) T. S. Eliot, selected essays. Harcourt, Brace & World 1950. New York.

4) Joseph Conrad, The Nigger of the Narcissus, Typhoon and other stories. Introduction by Conrad. Penguin Book. London 1971.

5) Guerard, Albert. Conrad the Novelist. Harvard University Press 1958.

6) Reid, Stephen, «The Unspeakable Rites in Hearts of Darkness» published in Conrad, a collection of critical essays.

7) Harvey, Sir Paul, The Oxford Companion to English Literature, Oxford University Press. 1967. U.K.

8) Kenner, Hugh, T.S. Eliot, the Invesible Poet, University Paperback. London, 1966.

9) Mudrick, Morvin. The Originality of Conrad, Published In Conrad, a collection of critical essays. Prentice Hall Inc., 1966.

10) Leavis, F. R., The Great Tradition, Anchor, New York, 1954.

11) Ford, Ford Madox, Joseph Conrad : A Personal Rememberance, Litte Brown and Company. Boston U.S.A 1924.

انعطفت « نيلي » المركب الجوال نحو مرساها دون خفقة من شراع وسكنت مرتاحة ٠ كان المد مرتفعا وكانت الريح هادئة تقريبا ولم يكن امامنا وقد وصلنا اسفل النهر غير انتظار الجزر ٠

كان ملتقى التيمز بالبحر يمتد امامنا كبداية طريق مائي لا ينتهي ، و في نهاية مرمى البصر التحم البحر بالسماء ٠ وفي الفراغ اللامع بدت الاشرعة الداكنة للقوارب التي بعثرها المد ساكنة كعناقيد كتانية حمراء مدببة الرؤوس بالتماعات روح صقيلة وعلى الشواطىء المنخفضة التي امتدت نحو البحر باستواء متلاش استقر ضباب خفيف ٠ كان الهواء ساكنا فوق « غريفسند » وفي البعد اخذ يتكثف قاتما كالحداد ويجثم ساكنا فوق اكبر واعظم مدينة على الارض ٠

كان مدير الشركات رباننا ومضيفنا ٠ راقبنا نحن الاربعة ظهره حين جلس في مقدمة السفينة ناظرا باتجاه البحر ولم يكن هناك اي شيء آخر اكثر من ذلك انتماء للبحر ٠ كان اشبه بالطيار الذي يعتبره البحار تجسيدا لعدم الثقة ، وكان من الصعب ادراك حقيقة أن عمله هذا ليس هناك في المصب اللألاء بل خلفه داخل القتامة الجاثمة ٠

كان يربطنا كما قلت في مكان ما ميثاق البحر الذي كان الى جانب ربطة لقلوبنا خلال اوقات الفراق الطويلة يجعلنا قادرين على احتمال حكايات بعضنا بعضا وحتى اداناتنا ٠

أخذ المحامي ، افضل الرفاق الكبار ، الوسادة الوحيدة لدينا واستلقى على السجادة الوحيدة على ظهر المركب فهو الاكبر سنا وفضلا ، وكان المحاسب قد احضر صندوق الدومينو فبدأ يشيد التشكيلات الهندسية بالقطع العظيمة ، اما مارلو فجلس متربعا عند مؤخرة المركب وقد اتكأ الى عمود الشراع · كانت خدوده غائرة وبشرته صفراء وظهره مستقيما · كان مظهره صارما وقد بدا بيديه المنثورتين براحتيهما باتجاه الخارج كاله معبود · تأكد المدير من سلامة المرسى ثم شق طريقه ليجلس بيننا ·

تبادلنا بعض الكلمات بكسل وتلا ذلك صمت على ظهر اليخت ولسبب أو لآخر لم نبدأ لعبة الدومينو وغمرنا شعور بالتأمل وبأننا لا نصلح لغير انعام النظر بسكون ، كان النهار ينتهي بصفاء من الالق الرائع وقد التمع الماء بهدوء · وكانت السماء الصافية تبدو كمساحة رقيقة من الضوء الصافي والضباب فوق سبخات «اسكس» كنسيج براق شفيف تدلى من المرتفعات الشجرية الداخلية ساترا الشواطىء المنخفضة بطياته الشفافة ، الا أن القتامة التي بدأت تجثم فوق النهايات الغربية اخذت تزداد اسودادا كل دقيقة كما لو أن اقتراب الشمس قد أثار غضبها ·

واخيرا غاصت الشمس بعد انحدار خادع لا يلاحظ وتحول اللون الابيض المتوهج الى احمر معتم لا اشعاع فيه ولا حرارة كما لو كانت على وشك الوثوب فجأة مضروبة حتى الموت بمسحة من تلك القتامة المحلقة فوق جمع من الرجال ·

وفجأة حدث تغير على المياه فأضحى الصفاء أقل تألقا ولكن اكثر عمقا ، واستراح النهر العتيق بضفتيه العريضتين ساكنا عند انتهاء النهار بعد عصور من خدمة الجنس الذي استوطن ضفتيه وانتشر بأنفة هادئة تليق بممر مائي متجها الى أقاصي الارض · نظرنا الى الجدول الوقور لا بفورة النهار القصير التي تأتي وتذهب في حركة ابدية بل بضوء اغسطس ذي الذكريات الدائمة · حقا ليس اسهل على انسان « تتبع البحر » كما يقول التعبير بحب وتقديس من استحضار روح الماضي البعيد على مرامي التيمز المنخفضة ·

يتردد تيار المد والجزر الى الامام والى الخلف بلا توقف متخما بذكريات عن الرجال والسفن التي حملها الى الراحة في الاوطان او الى معارك البحار ، لقد عرف وخدم كل الرجال الذين تفتخر بهم الامة من السير فرانسيس دريك الى السير جـون فرانكلين (١) فكلهم فرسان سواء حصلوا على اللقب أم لم يحصلوا عليه • انهم فرسان البحر الجوالون العظام ، وقد حمل كل السفن التي تتلألأ اسماؤها كالجواهر في سماء الزمن من « غولدن هايند » العـائدة بكنز تضمه بين جوانبها تزوره الملكة فينفذ نحو الحكاية الكبيرة الى « ايربوس » و « تيرور » ترسلان للغزو فلا تعودان ، عـرف السفن والرجـال الذين ابحـروا من « دتفورد » و « غرينتش » و « اريث » مغامرين ومستوطنين ، سفن ملوك وسفن رجال ربابنة وأمراء بحر ، « الدخلاء » السود على التجارة الشرقية والجنرالات المفوضون لاساطيل الهند الشرقية • الباحثون عن الذهب والشهرة، كلهم خرجوا من ذلك الجدول يمتشقون السيوف واحيانا يحملون المصابيح ، رسل القوة على الارض وحاملو شرارة النار المقدسة اية عظمة لم تطفىء ، مـع ذلك النهر متجهـة نحـو سر الارض المجهولة ، احلام الرجال وبذرة الثروة وجراثيم الامبراطوريات •

غربت الشمس وأغسق الليل على النهر وبدأت الاضواء تظهر على امتداد الشاطىء وأرسلت منارة (تشابمان) وهي شيء قائم على ثلاثة ارجل في منبسط موحل ضوءا قويا وتحركت اضواء السفن في ممرها ، حركة اضواء عظيمة ترتفع وتنخفض وفي الغرب قرب النهايات العالية كانت علامة فأل سيء في السماء لا تـزال تشي بوجود المدنية الوحشية ، قتامة جاثمة في ضوء النهار ونور ملتهب تحت النجوم •

« وكان هذا ايضا » قال مارلو فجاة « أحد الاماكن المظلمة على الارض » كان الوحيد بيننا لم يزل « يتبع البحر » ، وكان أسوأ ما يمكن أن يقال عنه أنه لم يكن يمثل طبقته كان رجل بحر لكنه كان جوالا ايضا بينما يحيا معظم البحارة ، ان جاز التعبير ، حياة

---

(١) يشير الكاتب الى لقب الفارس ويخاطب حامله بكلمة سير •

استرخاء · عقولهم في حالة بقاء في الوطن فالوطن معهم على الدوام ـ السفينة وكذلك بلدهم ـ البحر · لكم تشبه السفينة كل سفينة أخرى أما البحر فهو نفسه دائما وفي الكينونة الدائمة لما يحيط بهم من شواطىء غريبة ووجوه غريبة ومن اتساع الحياة المتغيرة يمسح الماضي المغلف لا بحس غامض بجهل غير مشرف فليس هناك ما هو غامض بالنسبة لبحار غير البحر نفسه فهو سيد وجوده وفيه غموض القدر ، وللراحة بعد ساعات العمل يكفيه أي مشوار أو أي وقت للمرح على الشاطىء لفك سر قارة بأسرها أمامه وغالبا ما يكتشف أن هذا السر لا يستحق المعرفة ، تتسم حكايات رجال البحر ببساطة مباشرة اذ يكمن كل معناها داخل قشرة جوز مشققة لكن مارلو لم يكن نموذجيا (اذا خمنا قدرته على نسج القصص) ، ولم يكن معنى حكاياته في الداخل كالبذرة بل خارجا يغلف الحكاية التي أظهرته كما يظهر الوهج غلالة الضباب في ما يشبه أحد تلك الهالات التي يبديها ضوء القمر الشبحي ·

لم تبدأ اشارته مفاجئة ابدا فقد كانت كمارلو نفسه لقد قبلت بصمت ولم يكلف احدنا نفسه عناء زفرة وهنا قال متمهلا :

« خطرت ببالي تلك الازمنة القديمة عندما اتى الرومان الى هنا لاول مرة قبل الف وتسعمئة سنة ـ منذ أيام أتى النور من هذا النهر منذ ـ تقول فرسان ؟ نعم ، لكنه كالنار تسري في السهل كومضة برق في الغيوم اننا نعيش في خفقة النور التي أرجو بقاءها طالما استمرت ارضنا القديمة بالدوران لكن الظلام كان هنا بالامس · تصوروا شعور قائد السفينة ـ ماذا تدعونها ؟ ترايريم (١) ؟ في البحر الابيض المتوسط وقد أمر بالتوجه فجأة نحو الشمال فيعبر أرض الغال (٢) بسرعة ويكلف بقيادة أحد الفصائل ولا بد أنهم كانوا مجموعة رائعة من الرجال المهرة ممن كانوا يبنون هذه السفن بالمئات خلال شهر أو شهرين اذا امنا بما

---

(١) سفينة حربية قديمة بثلاثة صفوف من المجاديف .
(٢) الاسم القديم لفرنسا .

نقرأ • تصوروه هنا في اخر العالم بحر بلون الرصاص وسماء بلون الدخان ونوع من السفن في صلابة الكونسرتينا (١) صاعدا الى اعلى هذا النهر محملا بالزوادات والطلبات وأشياء اخرى • ضفاف رملية ومستنقعات وغابات ومتوحشون حيث النادر الثمين مما يصلح اكلا للانسان متحضر وليس غير مـاء التيمـز للشرب • لا نبيد مـن فالرينا (٢) ولا ذهاب الى الشاطىء • هنا وهناك يضيع معسكر للجنود في البرية كالابرة في حزمة من القش • برد وضباب وعواصف وامراض ومنفى وموت • موت كامن في الهواء والماء والحشاش لا بد أنهم كانوا يموتون كالذباب هنا • نعم ، لقد فعلها ، فعلها جيدا ولا شك ودون ان يفكر بها كثيرا الا فيما بعد وربما كان ذلك في معرض التباهـي بما فعلـه في زمانـه ، كـان لديهـم مـن الرجولـة مـا يواجهـون بـه الظـلام ، وربمـا ابهجـه انتظار فرصة للترقية بالانتقال الى الاسطول في رافينـا فيمـا بعـد ان كان له اصدقاء في روما فيخلصوه من المناخ الرهيب • او تخيلـوا شابا مهذبا بردائه الروماني ، ربما خسر الكثير في المقامـرة ، يأتي الى هنا ضمن مجموعة من المسؤولين ، أو جامعي الضرائب أو مـع التجار من أجل تحسـين دخلـه فيحـل في الارض الطينية ويجتاز الغابات ، وفي موقع ما في الداخل يشعر بالوحشية عينها تحاصره بكل الحياة الوحشية التي تتحرك في احشاء الغابة وفي الادغـال وفي قلوب رجال البرية وليست لديه ادنى معرفة بهذه الاسرار فيكون عليه أن يعيش وسط ما لا يدرك وهو أمر مقيت ولكن له سحره الخاص الذي يبدأ بالعمل في كيانه انه سحر الكراهية والرعب • تصوروا الندم الآخذ بالازدياد والتوق الى الهرب والقرف غير المجدي والاستسلام والحقـد •

« ولكن » وتوقف • بدأ ثانية رافعا أحد ذراعيه من المفصل بينما راحة يده باتجاه الخارج فاتخذ برجليه الممدودتين امامـه وضع بوذا يلقي موعظة بملابس اوربية بلا زهـرة لوتس « لكن احدا منا لم يشعر مثل هذا تماما • ان ما ينقذنا هو الكفاءة ، أن نكون مكرسين للكفاءة • ولكن هؤلاء الرجال لم تكن لهم فاعلية

---

(١) الكونسرتينا آلة موسيقية تشبه الاكورديون •
(٢) مقاطعة في كمبانيا اشتهرت منذ القدم بنبيذها •

كبيرة ،لم يكونوا مستعمرين ولم تكن ادارتهم اكثر من بقايا عصارة كما اعتقد . كانوا غزاة ولذا فلستم تريدون سوى قوة وحشية . وعندما تحصلون عليها فليس لكم ما تفاخرون به اذ ليست قوتكم سوى نتيجة عرضية لضعف الاخرين لقد امتلكوا ما استطاعوا من أجل ما كان عليهم أن يمتلكوا ، كان سطوا بالقوة ، جريمة من الدرجة العظمى سار الرجال اليها مغمضين كشأن من يعملون في الظلام . غزو الارض ليس بذاك الجمال عندما تمعن النظر فيه ، انه يعني سلبها ممن تختلف بشرتهم عن بشرتنا ممن انوفهم اكثر تسطحا من انوفنا ولا تفديه غير فكرة خلفه . لا ادعاء عاطفي بل فكرة ثم ايمان غيراناني بالفكرة ، شيء يمكنك ان تشيده وتنحني امامه وتقدم له الاضحية .

توقف عن الكلام ، وانساب اللهب في النهر لهب صغير اخضر لهب احمر وابيض يتتابع ويتشابك ويتجمع ويتقاطع مع بعضه بعضا ثم يتفرق بطيئا او سريعا واستمرت حركة المدينة العظيمة في الليل الزاحف فوق النهر الساهر ابدا ترقبنا بصبر فلم يكن هناك شيء اخر نفعله حتى انتهاء المد . ولكن وبعد سكون طويل قال :

« اعتقد انكم تذكرون ايها الرفاق انني عملت بحارا في المياه العذبة فترة قصيرة » فعرفنا اننا سنستمع الى احدى تجارب مارلو غير المحسومة قبل مجيء الجزر .

« لا أريد أن ازعجكم بالحديث عما حدث لي شخصيا » بدأ يقول مظهرا ضعف بعض رواة القصص ممن يبدو انهم لا يعرفون ما يرغب مستمعوهم في الاصغاء اليه . « ولكن لكي تتفهموا اثر ذلك علي فعليكم ان تعرفوا كيف وصلت الى هناك وما رأيت وكيف صعدت الى اعلى ذلك النهر حيث قابلت ذلك المسكين لاول مرة . كانت تلك أبعد نقطة تمكن فيها الملاحة وكانت نقطة الذروة في تجربتي ويبدو انها القت شيئا من الضوء على كلّ جانب مني ومن افكاري . كانت كئيبة بما فيه الكفاية ، كانت محزنة ، لم تكن غير عادية بشكل من الاشكال بل لم تكن واضحة تماما ، كلا غير واضحة ومع هذا فيبدو انها القت شيئا من الضوء . كنت في ذلك الوقت قد عدت لتوي من لندن كما تذكرون وذلك بعد ان اكتفيت من المحيط الهندي والاطلسي والبحار الصينية التي كانت جرعات شرقية منتظمة استمرت قرابة ست سنوات كنت خلالها جوابا

اشغلكم عن اعمالكم ايها الرفاق وأغزو بيوتكم كما لو أن السماء قد ارسلتني لتمدينكم • كان ذلك رائعا لبعض الوقت ولكنني تعبت من الراحة بعد قليل فبدأت ابحث عن سفينة • اعتقد انه العمل الاكثر قسوة على وجه الارض ولكن السفن لم تحفل بي فبدأت اضيق بهذه اللعبة ايضا •

عندما كنت صغيرا احببت الخرائط وكنت انظر ساعات الى جنوب افريقيا وافريقيا واستراليا فأضيع في أمجاد الاستكشاف •

كانت هناك فراغات كثيرة في ذلك الوقت فاذا ما لمحت دعوة من احداها (وقد كانت كلها كذلك) أشرت اليها باصبعي وقلت « عندما أكبر سأذهب الى هناك • » كان القطب الشمالي أحد هذه الاماكن على ما أذكر ، لكنني لم أذهب الى هناك حتى الان ولن أحاول ذلك فيما بعد ، فقد اختفى السحر منها • كان بعض هذه الاماكن مبعثرا حول خط الاستواء وفي بقع مختلفة اخرى شماله أو جنوبه • ولقد ذهبت الى بعضها و •••• حسنا لن نتحدث عن ذلك• لكن هناك مكانا ، وكان الاكبر والاكثر خلوا ، همت به • حقا انه لم يكن فراغا في ذلك الوقت اذ كان قد امتلأ منذ طفولتي بالانهار والبحيرات والاسماء ولم يعد فراغا للغموض المبهج • رقعة بيضاء لطفل يحلم بها احلاما مجيدة • لقد تحولت الى مكان للظلام • ولكن كان بها نهر على وجه الخصوص ، نهر كبير جبار ترونه على الخارطة كأفعى امتدت حتى وصل رأسها البحر فيما ارتاح جسدها متثنيا فوق بلاد شاسعة ، وضاع ذيلها في عمق الارض ، عندما نظرت اليه على خارطة في واجهة أحد المحلات سحرني كما تسحر الافعى طائرا صغيرا أخرق • ثم كان اهتمام كبير • شركة للتجارة على ذلك النهر • « دعك من كل ذلك » ، قلت لنفسي اذ لا يمكنهم المتاجرة دون استعمال زوارق على كل تلك المياه ، زوارق بخارية • ولكن لم لا أحاول العمل على واحدة منها ؟

سرت في شارع فليت لكنني لم استطع أن أنبذ الفكرة • كانت الافعى قد سحرتني • تدركون أن ذلك كان اهتماما قاريا ، ذلك المجتمع التجاري ، لكن لي اقارب كثيرين يعيشون في القارة (١)

---

(١) المقصود بها القارة الاوروبية •

لانها رخيصة ولانها اقل قبحا مما تبدو كما يقولون · يـؤسفني أن اعترف انني بدأت ازعجهم ، وكان ذلك تحولا جديدا اذ لم يكن من عادتي أخذ الامور بهذه الطريقة كما تعلمون ، فقد سرت على الدوام بنفسي وفي طريقي الخاص الى حيث تقودني رغبتي ، ولم اكن لاصدق ذلك · ولكن عندما انتابني شعور بأنه يجب أن أصل الى هناك بطريقة أو بأخرى وهذا ما أزعجهم · قال لي الرجال « يا صديقنا العزيز » ولم يفعلوا شيئا فحاولت ـ أتراكم تصدقون ذلك ؟ حاولت مع النساء · أنا تشارلي مارلو طلبت من النساء أن يساعدنني في الحصول على عمل · كانت لي خالة ذات روح متشوقة عزيزة كتبت لي « سيكون ذلك مفرحا اني على استعداد لان افعل أي شيء · أي شيء من اجلك انها لفكرة رائعة · وأنا اعرف زوجة أحدى الشخصيات المهمة في الادارة ، واعرف كذلك رجلا ذا نفوذ كبير في » ··· الخ· الخ ·

كانت مصممة على انهاء الضجة والمساعدة في تعييني ربانا على أحد الزوارق البخارية النهرية اذا كان ذلك ما افكر فيه · وعينت بالطبع · تم ذلك بسرعة كبيرة ، ويبدو أن الشركة قد تلقت أنباءا عن مقتل أحد ربابنتها في معركة مع الاهالي فكانت فرصتي ، اذ جعلتني اكثر رغبة في الذهاب · ومرت شهور وشهور قبل أن أبدأ محاولة استعادة ما تبقى من الجثة ، فقد سمعت أن العراك الاساسي نشب بسبب سوء تفاهم حول بعض الدجاج · نعم دجاجتان سوداوان · اذ ظن فريسليفن ـ وهو اسم ذاك الدنمركي انه قد غبن في الصفقة فنزل الى الشاطيء وبدأ يضرب رئيس القرية بعصاه · ان سماع ذلك لا يدهشني كما لم يدهشني أن اسمع ان فريسليفن كان ألطف واهدأ مخلوق على وجه الارض · لا شك انه كان كذلك ولكنه قبل عامين من ذلك قد ارتبط بالهدف النبيل هناك· وربما شعر أخيرا بالحاجة الى تأكيد احترامه لنفسه بطريقة ما ، فضرب الزنجي العجوز بلا رحمة بينما كان جمع كبير من مواطنيه يرقبونه مصعوقين الى أن تقدم رجل ، هو ابن الزعيم كما علمت ، وقد استثاره صراخ الرجل وارسل حربته المجربة سهلة بين عظمتي كتفي الرجل الابيض · واختفى الجمع في الغابة وهم يتوقعون شتى صنوف المصائب بينما غادر زورق فريسليفن مذعورا بقيادة

المهندس كما اعتقد • وبعدها يبدو أن أحدا لم يكترث برفات فريسليفن حتى تعثرت قدمي بحذائه • لم اترك الامر هكذا • عندما جاءت الفرصة أخيرا لرؤية سلفي كانت الحشائش التي نمت ما بين اضلاعه من الطول بحيث أخفت عظامه وكانت كلها في مكانها ، اذ لم يمس أحد ذلك الرجل القادم من الماوراء منذ سقط • كانت القرية قد هجرت فوقفت الاكواخ المخربة السوداء اللون آيلة للسقوط • أما الرجال والنساء والاطفال فقد شتتهم الرعب المجنون بين الحشائش فلم يعودوا أبدا • ولم أدر ماذا حدث للدجاج • أعتقد أن أهداف التقدم قد قضت عليها ، ومهما يكن من أمر فمن خلال هذه القضية المجيدة حصلت على وظيفتي قبل أن تهدأ امالي فيها •

كالجنون سارعت باعداد نفسي وقبل أن تمضي ثمان وأربعون ساعة كنت أعبر القنال لاعرض نفسي على مستخدمي لتوقيع العقد • وخلال ساعات قليلة وصلت المدينة التي تشعرني على الدوام بالنفاق • بالكبرياء دون شك • لم أجد صعوبة في العثور على مكاتب الشركة • كانت الشيء الاكبر في المدينة كانت تملأ كيان كل من قابلتهم ، انهم يريدون بناء امبراطورية وراء البحار ليصبح لديهم ما لا يحصى من القطع النقدية عن طريق التجارة •

شارع ضيق مهجور غمرته ظلال حالكة ، بيوت عالية وعدد لا يحصى من النوافذ بستائرها التي تتحكم بادخال الضوء • صمت القبور ، وعشب نبت بين الحجارة فارضا الطريق نحو البوابات القوسية الى اليمين او اليسار حيث انفتح باب ضخم ذو دفتين على مصراعيه• دخلت عبر أحدى هذه الفتحات وصعدت درجا نظيفا خلوا من الزخرفة جافا كالصحراء • وفتحت أول باب رأيته • كانت هناك امرأتان احداهما سمينة والاخرى نحيفة تنسجان صوفا أسود وقد جلستا على كرسيين صنعت قاعدتاهما من القش • نهضت النحيفة وتقدمت نحوي - وكانت لا تزال تنسج بعينين محزونتين ، وفي اللحظة التي فكرت فيها بالابتعاد عن طريقها كما يفعل الناس مع السائرين في نومهم توقفت ونظرت الي • كان ملبسها في بساطة غطاء مظلة • استدارت دون أن تتفوه بكلمة وسبقتني الى غرفة

الانتظار · اخبرتها باسمي وبدأت أمعن النظـر · كانت طاولة مصنوعة من خشب الصنوبر الابيض تجثم في منتصف الغرفة وقد اصطفت الكراسي البسيطة الى الجدران · وفي احد الاركان التمعت خارطة تحمل علامات من جميع الالوان كان الاحمر اكثرها - من الجيد رؤيته لانه يدل على ان عملا ما قد تم انجازه ، كثير من الازرق وقليل من الاخضر ورشقات برتقالية · وعلى الساحل الشرقي دلت رقعة قرمزية على المكان الذي يشرب فيه رواد التقدم العظام بـيرة « لاغـر » الرائعة · لم أكن ذاهبا الى أي منها على اية حال · كنت ذاهبا الى الاصفر الذي كان كالاموات في الوسط ، وكان النهر هناك ساحرا مميتا كالافعى ، فتح الباب وأطل رأس سكرتيرة ارتسمت على وجهها تعابير المعاناة · واشارت لي باصبع نحيل كي اذهب الى المكان الحرام · كان الضوء خافتا وقد استقر مقعد الكتابة بثقل في الوسط· وخلف هذا التكوين بدأت تعابير استدارة شاحبة في معطف طويل · الرجل العظيم نفسه ، طويل القامة يمسك بطرف المقبض الذي يكلف الملايين · صافحني علـى ما اعتقـد وتمتم بغموض ثم اكتفى بما قلته باللغة الفرنسية « رحلة سعيدة » ·

وخلال خمس واربعـين ثانية كنت في غرفـة الانتظار مرة اخرى مع السكرتيرة الحزينة التي لم تتخل عن عطفها وحزنها وهي تفرد العقد أمامي لتوقيعه ، وأعتقد أنني تعهدت - ضمن ما تعهدت - الا افضي ايا من اسرار المهنة · حسنا لن افعل ذلك ·

بدأ شعور بعدم الارتياح يراودني اذ لم أتعود على مثـل هذه الطقوس · وقد بدا الامر كما لو أنني اشترك في مؤامرة - لا ادري - ثمة شيء على غير ما يرام ، وشعرت بالفرح لخروجي ، وفي الغرفة الخارجية كانت المرأتان تنسجان الصوف الاسود بحمية مريضة · كان الناس يتوافدون وأصغر المرأتين تذهب وتجـيء وهي تقوم بتعريفهم · بينما جلست الكبيرة على كرسيها وقد وضعت خفيها القماشيين على مدفأة القدمين واستراح قط في حضنها · كانـت تضع على رأسها غطاء منشى ولها ثؤلول على احد خديها وقـد تعلقت نظارتها ذات الاطار الفضي في طرف انفها · نظرت الي من فوق نظارتها فأزعجتني نظراتها السريعة وهدوؤها اللامبالـي ·

القت بنفس النظرة السريعة الثاقبة على شابين لهما ملامح حمقاء كانا قد وصلا • وبدت كما لو أنها تعرف كل شيء عنهما وعني أيضا ، انتابني شعور غامض • فقد كانت غير طبيعية ابدا وكثيرا ما فكرت وأنا على تلك المسافة البعيدة بالمرأتين اللتين كانتا تحرسان باب الظلام ، تنسجان الصوف الاسود كما لو آرادتا ان تصنعا غطاءا دافئا لكفن • الاولى تقدم الى المجهول باستمرار وتدقق الاخرى في الوجوه الخرقاء بعينين هرمتين لا مباليتين • السلام عليك يا ناسجة الصوف الاسود العجوز « موريتوري يحييك » • قليلون من اولئك الذين نظرت اليهم شاهدوها مرة اخرى ، لم يبلغوا النصف على الاكثر •

كان لا يزال عليّ أن أزور الطبيب • « اجراء رسمي بسيط » قالت لي السكرتيرة مؤكدة وكأنها تلعب دورا كبيرا في آلامي ودخل شاب يضع قبعته فوق حاجبه الايسر قادما من مكان ما في الطابق العلوي وقادني الى الامام ، موظف كما أظن • لا بد أنه كان هناك موظفون رغم ان البيت بدا هادئا كبيت في مدينة اموات • كانت ثيابه مهلهلة وقد انتثرت بقع الحبر على اكمام معطفه واستقرت ربطة عنقه العريضة المتموجة تحت ذقن شبيهة بأصبع قدم في حذاء قديم • كان الوقت لا يزال مبكرا على مجيء الطبيب فطلبت مشروبا مما أثار فيه الحبور • وحالما جلسنا لتناول نبيذنا بدأ في تمجيد عمل الشركة فعبرت له بعفوية عن دهشتي من عدم ذهابه الى هناك • بدا اكثر برودا ولملم اطرافه بسرعة وقال بوقار « قال افلاطون لتلاميذه ، لست بالحماقة التي ابدو بها » وأفرغ كأسه في جوفه بتصميم ونهضنا •

جس الطبيب العجوز نبضي بينما كان من الواضح أنه يفكر بشيء اخر « جيد ، مناسب لهناك » تمتم قائلا ثم سألني بنوع من الشغف عما اذا كنت اسمح له بقياس رأسي وأجبت دهشا بنعم • فأحضر شيئا يشبه « الكاليبرز » (١) وبدأ يأخذ المقاييس خلفا وأماما وفي كل اتجاه وهو يدون الملاحظات بعناية • كان رجلا

---

(١) آلة طبية تقاس بها الاعضاء الدائرية •

ضئيل الجسم غير حليق يلبس معطفا مهترئا وخفا فظننت أنه مجنون غير مؤذ • قال :

« أنني أطلب الاذن دائما كمهتم بالعلوم لقياس جماجم الذاهبين الى هناك ، وكذلك عندما يعودون » • ثم تابع « وأنني في الواقع لا اراهم ابدا واكثر من ذلك فالتغيرات تحدث في الداخل » وضحك كما لو أنه سمع نكتة هادئة •

« اذن فأنت ذاهب الى هناك • شهير ، وممتع ايضا • » والقى علي نظرة متقصية وقال ثانية :
« هل هناك حالات جنون في عائلتك ؟ » سأل ذلك بلهجة حقيقية • فشعرت بالانزعاج الشديد • وقلت :
« وهل هذا السؤال من قبيل الاهتمام بالعلوم ايضا ؟ » أجاب دون أن يحفل بانزعاجي •
« قد يكون من المثير للعلم أن يراقب التغيرات الذهنية للافراد فور حدوثها ، ولكن ••• هل تشعر بالاغتراب ؟ » قلت مقاطعا :
« على كل طبيب أن يكون لديه القليل ••• » فأجاب بهدوء راسخ :

« ان لدي نظرية صغيرة • وعليكم ايها السادة الذاهبون الى هناك أن تساعدوني على اثباتها • وتلك هي حصتي من الفوائد التي ستجنيها بلادي من امتلاك مثل تلك المستعمرة • الثروة الوحيدة التي أتركها للاخرين • عذرا على اسئلتي ولكنك أول انكليزي افحصه ••• » وسارعت الى التأكيد له بأنني لست نموذجا على الاطلاق قلت :

« لو كنت كذلك لما تحدثت معك بهذه الطريقة » قال ضاحكا :
« ان ما تقوله عميق جدا وربما خاطىء تجنب أن تثار اكثر من التعرض للشمس • وداعا • كيف تقولونها بالانكليزية هه ؟ وداعا • وداعا • في المناطق الاستوائية يجب المحافظة على الهدوء اكثر من أي شيء اخر » • ورفع سبابته محذرا ••• الهدوء الهدوء وداعا •

لم يبق غير شيء واحد لأفعلـه ، توديع خالتـي الرائعة ٠ وجدتها في حالة انتصار ، وشربت عندها بعض الشاي وكان ذلك آخر شاي اشربه لعدة سنوات ٠ وفي غرفتها التي بدت مريحة كما تتوقعون أن تكون عليه غرفة استقبال سيـدة ، ثرثرنا طويلا بهدوء قرب المدفأة ، وفي مجرى هذه المكاشفة اتضح أنني قدمت لدي زوجة الشخصية المبجلة ـ ويعلم الله لدى أي عدد آخر من من الناس ايضا ـ كشخص ذكي بشكل استثنائي ـ ثروة كبيرة للشركة ـ شخص لا يمكن الحصول على مثله دائما ٠ يا الهي ، وأنا الذي كلفت بالعمل على زورق لا يساوي بنسين ونصف البنس بصفارة لا تساوي بنسا واحدا ٠ ويبدو انني كنت احد العمال ولي الرئاسة ، كنت أشبه برسول من نور ، أشبه بنوع من القديسين ٠ ولقد كان هناك الكثير من الهراء الذي انتشر شفاها وكتابة في ذلك الوقت أما المرأة الرائعة التي كانت تعيش في خضم هذه الفورة من الهراء فقد طارت فرحا ، فتحدثت عن انقطاع ملايين الجهلة عن طرقهم الكريهة حتى لقد ازعجتني ٠ فأخطرت بالتلميح بأن الشركة سائرة نحو الربح ٠ قالت بذكاء :

« انك تنسى ايها العزيز تشارلي أن العامل يستحق أجره ٠ »

عجيب كم النساء بعيدات عن ملامسة الحقيقة ٠ انهن يعشن في عالم خاص بهن لم يكن له مثيل على الاطلاق ولن يكون ابدا ٠ انه فائق الجمال ، فاذا ما حاولن اقامته تحطم قبل أن تغرب عليه الشمس ، تلك حقيقة مقيتة لا زلنا نحن الرجال نعيش فيهـا باقتناع منذ بدء الخليقة ٠ تنبثق فجأة فتطيح بالشيء كله ٠

عانقتني خالتي بعد ذلك ونصحتني أن ألبس الصوف وطلبت مني أن اكتب بين حين وآخر ٠٠ وغير ذلك وخرجت ٠ ولا ادري لماذا انتابني شعور غريب بأنني محتال ، غريب فأنا الـذي تعودت الذهاب الى أي جزء من العالم في أقل من اربع وعشرين سـاعة ، وبتفكير أقل مما يبذله معظم الناس حين يعبرون الشارع ، غريب أن تنتابني لحظة ـ لن أقول لحظة تردد ـ بل وقفة ذعر أمام هذا الحدث العادي ، وأن افضل طريقة لشرح ذلك لكم هو القول بأنني شعرت للحظة أو اثنتين بأنني لست ذاهبا الى مركز قارة بل الى مركز الارض ٠

غادرت في باخرة فرنسية توقفت في كل ميناء يملكونه هناك ولسبب لم أر غيره هو انزال الجنود وضباط الجمارك .

راقبت الشاطىء . ان مراقبة شاطىء ينحدر قرب السفينة اشبه بالتفكير بلغز ، ها هو امامك مبتسما ، عابسا ، داعيا ، عظيما ، حقيرا ، باهتا ، او وحشيا . ودائما أبكم تلوح عليه علائم رغبة بالهمس « تعال واكتشف » أما هذا البحر فكان بلا ملامح كما لو أنه في طور التكوين بهيئته الرتيبة المتجهمة .

كان طرفة غابة هائلة استحالت خضرتها القاتمة الى سواد تلتقي بالموج الابيض الذي جرى مستقيما كخط مسطر بعيدا على طول بحر ازرق غشي لمعانه ضباب زاحف ، وكانت الشمس وحشية والارض تتلألأ وتقطر البخار ، وهنا وهناك بدت البقع الرمادية المبيضة كالعناقيد داخل الموجة البيضاء ، يرفرف فوقهما علم كما يبدو .

مستوطنات ، عمر بعضها يبلغ القرون ، لكن حجمها الذي لا يزيد عن حجم رأس الدبوس لاح في مدى خلفيتها المترامي . سرنا ، وقفنا وأنزلنا الجنود ثم تابعنا وأنزلنا رجال الجمارك للجباية من خلاء مهجور ، أقيمت فوقه حظيرة من الصفيح ضاع فيها عمود العلم ، ثم انزلنا المزيد من الجنود لخدمة موظفي مبنى الجمارك على ما يبدو ، سمعت أن الموج أغرق بعضهم ولكن لا يبدو أن احدا يهتم . فقد كنا نتركهم هناك ثم نواصل المسير . كان الشاطىء يبدو كما في اليوم السابق وكأننا لم نتحرك . لكننا مررنا بأماكن مختلفة – أماكن تجارية – تحمل اسماء مثل «غران بسام» و « بوبو الصغير » وكأنها مأخوذة من طرفة دنيئة مثلت أمام ستارة شريرة . وبدا كسل المسافر وشعوري بالعزلة بين كل اولئك الرجال الذين لا رباط بيني وبينهم ، والبحر الزيتي الواهن وثوب الكآبة الساحلي ، وكأنها تبقيني بعيدا عن حقيقة الاشياء داخل شرك من الوهم الحدادي . كان صوت الموجة بين الحين والحين فرحة غامرة كحديث الاشقاء . كان شيئا طبيعيا له منطقه ومعناه، وبين حين وآخر كان أحد القوارب يأتي من الشاطىء بمجدفيه السود ليقدم لأحدنا اتصالا لحظيا بالحقيقة .

ومن بعيد كان بمقدورنا رؤية بريق عيونهم . كانوا يصرخون ويغنون ، وكانت اجسادهم تلتمع بالعرق المتصبب . وجوههم كالاقنعة الضخمة ، ولكن كانت لهم العظام والعضلات وحيوية البرية . طاقة حركة عظيمة تشبه في طبيعتها وحقيقتها موجة ساحلية . لم يكونوا بحاجة الى مبرر لوجودهم هناك . كانت رؤيتهم مصدر راحة عظيمة . كنت أشعر لبعض الوقت انني لا ازال انتمي الى عالم من الحقائق المباشرة ، الا أن ذلك الشعور لم يكن يستمر طويلا بعد أن يطغى عليه شيء آخر . اذكر مرة أننا مررنا بسفينة حربية كانت تقف بعيدا عن الشاطىء الذي خلا حتى من حظيرة تقصف الحشائش . يبدو أن الفرنسيين كانوا يخوضون احدى حروبهم في تلك الانحاء . سقطت راية السفينة ممزقة كقطعة من قماش بينما كانت فوهة المدافع الطويلة التي يبلغ قطرها ستة انشات مثبتة على جوانب جسم السفينة المنخفض وقد ارتفع بها الموج الدهني اللزج الى أعلى بكسل ثم تركها تهوي مؤرجحة قلوعها . وفي فراغ الارض والبحر والماء الهائل كانت تطلق النار على القارة بشكل مبهم . بـ ٠٠٠٠ وم ، وينطلق احد المدافع ذات الستة انشات ، فيلتمع لهب صغير ثم يختفي ويختفي بعده الدخان الابيض أما القذيفة الصغيرة فكانت تصدر صرخة ضعيفة دون أن تتمكن من فعل شيء . كانت لمسة من جنون تصبغ ذلك الحدث وحس بهزلية حزينة في قلب المشهد . ولم يميز ذلك أحد المسافرين فأخذ يؤكد لي بحماس أنه كان هناك مخيم للوطنيين - كان يسميهم الاعداء - المختبئين في مكان ما هناك .

اعطيناها رسائلها وتابعنا المسير . وسمعت أن الرجال الذين على ظهر تلك السفينة الوحيدة كانت تقتلهم الحمى بمعدل ثلاثة كل يوم . ومررنا على المزيد من الاماكن ذات الاسماء المضحكة ، حيث كانت رقصة الموت والتجارة تمضي في جو ارضي ساكن كجو سرداب شديد الحرارة على طول الشاطىء المبهم الذي كانت تحده الامواج الخطرة كما لو أن « الطبيعة » قد حاولت تفادي المتطفلين . وفي داخل الانهار وخارجها غزت جداول الموت والحياة التي تحولت ضفافها العفنة الى طين وتكثفت مياهها وأصبحت وحلا ، اشجار

(المانغروف) (١) الملتوية التي بدت وكأنها تلتف نحونا في عملية يأس عـاجز ٠

لم نتوقف في أي مكان لمدة تكفي لاعطاء انطباع مميز ، لكن احساسا بالغموض والحيرة الكئيبة نبت في داخلي شبيها بحج مضجر خلال نذر بالكوابيس ٠

كنت اقتـرب من يومي الثلاثين قبـل أن أرى مصب النهر الكبير ٠ رسونا بعيدا عن مقر الحكومة لكن عملي لن يبدأ قبل مسير ما يقرب من مائتي ميل من هناك لذا فقد بدأت بالصعود الى مسافة ثلاثين ميلا بأسرع ما يمكنني ٠ كانت رحلتي فوق باخـرة بحرية يقودها قبطان سويدي دعاني الى المنصة حالما عرف انني بحار ٠ كان شابا نحيلا وسيما عكر المزاج طويل الشعر ثقيـل الخطوات ٠ وحالما غادرنا الرصيف الصغير التعس لوح برأسه الى الشاطىء باحتقار وسأل :

« هل كنت تعيش هنا ؟ » ٠

قلـت :

« نعم » فمضى قـائلا :

« رائعون ، رجال الحكومة هؤلاء ، أليس كذلك ؟ » « قالها بلغة انكليزية موجزة بمرارة ملحوظة » ٠ مضحك ما يفعله بعض الناس نظير فرنكات قليلة في الشهر ، وانـي اتساءل عما يحدث لهم عندما يصعدون للبلاد ؟٠

قلت له انني اتوقع ان اعرف ذلك سريعا ٠

« هكـ ٠٠٠٠٠ ذا » قال متعجبا ٠ وخطـا متثاقلا بالعرض محتفظا بنظرة حذرة الى الامام ٠ وتابع « لا تكن متأكدا من ذلك فمنذ ايام اخذت رجلا معي فشنق نفسه في الطريق ٠ كان سويديا هـو الاخـر » ٠

---

(١) المانغروف : شجر استوائي يعيش قرب المستنقعات تنبت أغصانه جذوراً جديدة ٠

« شنق نفسه ، لماذا بحق الله ؟ » صرخت • لكنه مضى ينظر بترقـــب :

« لا احد يدري ربما كانـــت حـرارة الشمس عالية ، وربما البلـــد » •

وشققنا طريقنا اخيرا نحو مرحلة جديدة • فقد برز جـــوف صخري ، واكوام من تراب بعض الحفر قرب الشاطىء • بيـوت فوق التلال واخرى ذات اسطح حديدية وسط فضلات الحفريات او معلقة فوق المنحدر وطغى صوت ضجة متواصل صادر عـن منحدر النهر على مشهد الخراب المأهول ذاك • وتحرك بعض انـــاس معظمهم سود عراة هنا وهناك كالنمل ، وبرز محط السفينة في عرض النهر • غمر كل ذلك نور باهر اخذ يلتمع مجددا ، على حين فجأة قال السويدي :

« تلك هي محطـة شركتك » •

واشار الى ثلاثة هياكـــل تشبـــه الثكنات فوق المنحنـى الصخري » • سأرسل اشياءك الى الاعلى • قلت اربعة صناديق ؟ حسن • وداعـــا •• » •

مررت بمرجل بين الاعشاب ثم رأيت ممرا يقود الـى أعلى التل الذي استدار باتجاه الصخـور حيث استقرت عربة ضئيلـــة الحجم على ظهرها وقد ارتفعت عجلاتهـــا التي نقصت واحدة في الفضاء فبدت في موات هيكل حيوان نافق • مررت عن المزيد مـن القطع الآلية الخربة ، كومـة من السكـك الصدئة • والى اليسار القت أجمة من الاشجار بظلالها على الاشياء الداكنـة التي كانـت تتحرك بوهن • نظرت بعينين نصف مغمضتين فرأيت الممر المنحدر وسمعت صوت بوق الى اليمين ثم رأيـــت بعض الرجـال السود يركضون ، وهز الارض انفجار قوي مبهم وارتفعت سحابة دخان من الجرف وسكن كل شيء • لم يحـــدث للصخرة شيء ، كانوا يقومون ببناء سكة الحديد • ولم تكن الصخرة تعترض الطريق بل كان هذا التفجير الذي لا هدف له هو كل ما يجري من عمل •

ادرت رأسي لاتبين صوت خشخشة خفيفة ورائي ٠ كان ستة رجال سود يتقدمون في رتل وقد انهكهم صعود الممر ٠ انتصبت قاماتهم وابطأوا السير وبدأوا يوازنون السلال المملـوءة بالتراب فوق رؤوسهم لكن الخشخشة الناتجة عـن خطواتهم استمرت ٠ كانوا يلفون خرقا سوداء حول احواضهم وقد اهتزت اطرافهـا القصيرة خلفهم كالذيول ٠ كنـت استطيع رؤية كل ضلع مـن اضلاعهم ومفاصل اطرافهم التي كانت اشبه بعقد في حبل ٠ كان الجميع يضعون ياقات على رقابهم وكلهم مربوط بالاخر بسلسلة ٠ كانت انعطافاتها تتأرجح بينهم مصدرة خشخشة رتيبة ٠ وذكرني انفجار اخر جاء من الجرف بالسفينة الحربية التي شاهدتها تقصف اليابسة ٠ كان ذلك نفس الصوت المشؤوم الا ان كلمة اعداء لا تنطبق بأي حال على هؤلاء الرجال ٠ كانوا يسمون مجرمين وقـد جاءهم القانون المنتهك سرا مستحيلا مـن البحر كتلك القذائف المتفجرة ٠ كانت صدورهم الهزيلة تلهث في اتساق وقد ارتعشت انوفهم المفلطحة وحملقت الاعين الحجرية بقمة التل ٠

تجاوزوني بستة انشات دون ادنى التفاتة الي تعلوهم سيماء اللامبالاة الكاملة التي تميـز الوحوش التعيسة ٠ وخلـف هذه المخلوقات البدائية ، سار احد المروضين في نتاج القوة الجديدة في العمل كئيبا يحمل بندقية من وسطها ٠ كان يلبس معطف بذلـة رسمية سقط احد ازرارها ٠ وعند رؤيته رجلا ابيض في الممـر رفع سلاحه الى كتفه مبتهجا ، كان ذلك نوعا من الحكمة الساذجة ، فالرجال البيض بالنسبة لهم متشابهون عن بعد بحيث لم يعرف من اكون ، لكنه سرعان ما تأكد وبتكشيرة وغد ابانت اسنانـه البيضاء والتفاتةنحو الرجال المكلف بهم،بدا وكأنه يشركني بمهمته المجيدة فلست سوى جزء من الهدف العظيم لتلك المهمات النبيلة العادلـة ٠

بدلا من الصعود الى الاعلى استدرت ونزلت باتجاه اليسار لأترك المجال لجماعة المقيدين تلك من الغياب عن ناظري قبل ان اكمل صعود التل ٠ لست رقيقا كما تعرفون فقد كان علي ان اضرب واصد الضربات وكان علي ان اقاوم واهاجم في بعض الاحيان وتلك احدى طرق المقاومة دون حساب الثمن الذي سأدفعه بدقة ، حسب

ما يتطلبه نوع الحياة التي كنت اتخبط فيها • رأيت عنفا وجشعا ورغبات حارة ولكن بحق كل النجوم لقد كانوا شياطين اقوياء شرهين حمر العيون سيطروا على الرجال وساقوهم - رجال اقول لكم • ولكن حالما وقفت على طرف التل ذاك تنبأت انني وفي نور الشمس المبهر لتلك الارض سأتعرف على شيطان مدع مهترىء قصير النظر ذي حماقة جشعة قاسية • وكان علي ان اقضي عدة اشهر وان اقطع الف ميل لأرى بنفسي مقدار خبثه ، وقفت لحظة كمن روعه انذار واخيرا نزلت التل منحرفا باتجاه الاشجار التي كنت قد رأيتها •

تجنبت حفرة كان شخص قد حفرها عند المنحنى لغير ما سبب يمكن التكهن به ، لكنها لم تكن مصيدة للطرائد او حفرة رملية على اي حال • ولكن ربما كانت لها علاقة بالرغبة الخيرة في اعطاء المجرمين عملا ما لست ادري بالضبط • وبعد ذلك اوشكت على السقوط في واد ضيق صغير لا يعدو ان يكون اكثر من ندب في طرف التل • وقد اكتشفت ان كثيرا من انابيب التصريف الخاصة بالمستوطنة تصب هناك • كانت كلها مكسرة بفعل تخريب عبثي •

واخيرا وصلت تحت الاشجار بهدف التمشي في الظل لحظة لكنني سرعان ما بدوت وكأنني قد خطوت الى دائرة العتمة في جحيم ما • كان منحدر المياه قريبا وقد ملأ ضجيج منتظم بلا انقطاع هدوء الغابة المحزون حيث لم تخرج زفرة ولا تحركت ورقة من شجرة محدثة صوتا غامضا كما لو ان الخطو الممزق للارض المندفعة قد اصبح فجأة مسموعا •

انحنت اشباح سوداء واستلقت وجلست بين الاشجار متكئة على جذوعها متشبثة بالارض ، نصفها طمسه الضوء المعتم والنصف الاخر خارجه بكل اوضاع الالم واليأس والخذلان • اختفى منجم اخر من على الجرف وتلا ذلك ارتعاش خفيف في التربة تحت قدمي • كان العمل لا يزال مستمرا • العمل كان هذا هو المكان الذي انسحب بعض المساعدين اليه ليموتوا

كان واضحا انهم يموتون ببطء لم يكونوا اعداء ولم يكونوا

مجرمين ولم يكونوا اي شيء ارضي الان • لم يكونوا غير ظلال سوداء للمرض والجوع مبعثرة في القتامة المخضرة • احضروا من اقصى بقاع الساحل بكل شرعية اتفاقيات الزمن وضاعوا في المحيط غير المتجانس ، يتناولون الغذاء غير المألوف فيصيبهم المرض فيصبحوا غير اكفاء فيسمح لهم بعد ذلك ان يزحفوا بعيدا ويرتاحوا • كانت تلك الاشباح المحتضرة حرة كالهواء ونحيلة مثله تقريبا • بدأت اميز التماع الأعين تحت الاشجار • وبينما انا التفت نحو الاسفل شاهدت وجها قرب يدي • كانت العظام السوداء مستلقية بطولها وقد اتكأ احد الكتفين الى جذع شجرة ، وببطء كبير ارتفعت الرموش ونظرت العينان الغائرتان الى الاعلى الي ، كبيرتان خاليتان كما لو انهما لا تبصران ، وخفق شيء ابيض في عمق مدارهما ثم ما لبث ان تلاشى • بدا الرجل شابا – اقرب الى الغلام – ولكن من الصعب تبين ذلك بالنسبة لهم • اقتربت الاصابع منها وأمسكت بها دون اي حركة او التفاتة اخرى • كان يلف قطعة من النسيج الابيض حول عنقه • لماذا ؟ ومن اين حصل عليها ؟ هل كانت شارة ؟ زينة ؟ تعويذة ؟ أم عمل استعطاف ؟ هل كانت ترتبط بذلك اية فكرة ؟ كانت تبدو مروعة حول عنقه الاسود ، تلك القطعة من الخيط الابيض من خلف البحار •

قرب الشجرة نفسها كانت حزمتان اخريان من الزوايا الحادة تجلس مقرفصة • اسند احدهما ذقنه على ركبتيه وحملق في الفراغ بطريقة مروعة • اما شبحه فقد اراح جبهته كمن غلبه تعب عظيم ، وحولهما انتشر اخرون متخذين كل اوضاع الانهيار المؤلم ، كما في تصاوير المذابح والاوبئة • وبينما انا واقف وقد مسني الذعر نهض احد تلك المخلوقات على يديه وركبتيه ومضى على اربعته نحو النهر ليشرب • لعق الماء من يده ثم جلس في ضوء الشمس متربعا وبعد قليل ترك رأسه يسقط فوق عظمات صدره •

لم اعد ارغب في المزيد من التأخر في الظل ، فمضيت مسرعا نحو المحطة • وعند البناية التقيت برجل ابيض ولانه مضى بسرعة بأناقة لم اتوقعها فقد حسبته نوعا من الرؤيا بياقته المنشاة العالية وثنيات اكمامه البيضاء ومعطفه الابيض المصنوع من

صفوف الالباكا (١) والبنطلون الابيض كالثلج وربطة العنق الخالية من النقوش والحذاء اللامع • لم يكن يضع قبعة فبدا شعره المفروق المسرح المطيب بالزيت تحت مظلة شمسية خضراء الحواف رفعتها يد بيضاء كبيرة • كان مدهشا بمسك القلم خلف اذنه •

صافحت تلك المعجزة وعلمت انه كان رئيس محاسبي الشركة وان مسك الدفاتر يتم في هذه المحطة ، واخبرني انه قد خرج للحظة « ليستنشق الهواء النقي » • بدا التعبير شاذا بشكل رائع بايحائه بحياة الجلوس المكتبية • لم اكن لاذكر لكم شيئا عن هذا الشخص لولا ان شفتيه كانتا اول من نطقتا باسم الرجل الذي يكون مع ذكري ذلك الزمن كلا لا ينفصل • الا انني احترمت الرجل • نعم ، احترمت ياقته وثنيات اكمامه العريضة وشعره المسرح • كان اشبه ما يكون بدمية حلاق الا انه احتفظ بأناقته في بلاد الانحطاط الاعظم • كان ذلك هو الاساس اما ياقته المنشاة واطراف قميصه الامامية فانجازات تلك الشخصية • كان هناك منذ ثلاث سنوات • فيما بعد لم استطع مقاومة توجيه السؤال له حول كيفية تدبره لاقتناء تلك الملابس • فاحمر وجهه قليلا واجاب بتواضع « كنت اقوم بتدريس احدى النسباء الوطنيات قرب المحطة ، كان ذلك صعبا • فقد كانت تضمر كراهية للعمل » • وهكذا استطاع ذلك الرجل انجاز شيء • لقد كرس نفسه لكتبه التي كانت منظمة بشكل رائع •

« كان كل شيء خلاف ذلك هناك مشوشا ، الرؤوس والاشياء والبنايات • كانت صفوف من الزنوج المغبرين بأقدامهم المفلطحة تأتي وتذهب وصفوف اخرى من البضائع المصنعة والاقطان القذرة والقلائد والاسلاك النحاسية ترسل الى اعماق الظلام ، وفي المقابل كان يأتي سيل من العاج الثمين • كان علي ان انتظر في المحطة عشرة ايام - ابدية كاملة - عشت في كوخ في ساحة المحطة ولكن لكي ابتعد عن الفوضى كنت اذهب الى مكتب للمحاسب احيانا • كان بيته مبنيا من الواح خشبية افقية لكنها كانت مركبة بشكل

---

(١) حيوان يعيش في امريكا الجنوبية طويل الصوف

سيء بحيث كان كلما انحنى فوق مكتبه غطت كل جسده خطـوط دقيقة من ضوء الشمس اغنت عن فتح الاباجورالكبير ٠ كان الجو حارا والذباب الكبير يطن بشكل شيطاني ٠ لم يكن ذلك الذباب يلسع بل كان يطعن ٠ كنت اجلس على الارض في اغلـب الاحيان بينما كان هو بمظهره الكامل (المعطر قليلا) يكتب مستقرا فوق كرسي بلا مسند ٠ وفي بعض الاحيان كان يقف قليلا للقيام ببعض التمارين وعندما كان سرير ذو عجـــلات يرقد عليه رجل مريض (موظف من أعلى البلد في العادة) ، كان يبدي بعض الامتعاض قائلا « ان تأوهات هذا المريض تشتت انتباهي ، ولكن بدون ذلك فان من الصعوبة بمكان ان تحاذر من الاخطاء الكتابية فــي هـذا المنـــاخ » ٠

في احد الايام قال دون ان يرفع رأسه « هناك في الداخل لا بـد انك ستقابل السيد « كورتز » ولدى سؤالي عمـن يكـون السيـد كورتز ذاك قال : موظف من الطراز الاول ٠ ولما رأى خيبة املي مـن هذه المعلومة اضاف ببطءوهو يضع قلمه « انه شخص غير عادي » وبعد بضعة اسئلة اتضح لي ان السيد كورتز كان في ذلك الوقت مسؤولا عن محطة تجارية مهمـــة جدا ، في بلد العاج الحقيقية ٠ « هناك في الاسفل حيث يرسل مــن العاج قدر ما يــرسل الاخرون مجتمعين ٠٠» ثم تابع الكتابة من جديد ٠ كان المريض اضعف من ان يئن ، وطن الذباب وسط هدوء عظيم ٠

فجأة تنامت همهمة اصوات وضجـــة وقع اقدام ، لقد وصلت قافلة المحطة ٠ انفجرت ثرثرة اصوات فظة في الجانب الاخــر من الرصيف الخشبي ٠ كان الجميع يتحدثون في نفس الوقت وفي وسط تلك المعمعة ارتفع صوت رئيس المحاسبين كالعويل للمرة العشرين في ذلك اليوم « لا امل » ٠٠ ثم نهض ببطء : « يـا له مـن شجار مخيف » ٠ عبر الغرفة بهدوء لينظر الى المريض ثم خاطبني وهو عائد : « انه لا يسمع » واجفلت : « ماذا ، ميت ؟ » اجاب برباطة جأش : « كلا ، ليس بعد » ثم اشار برأسه الى الضوضاء في ساحة المحطة قائلا : « عندما يكون على المرء ان يدون بدقة فانه يكـره هؤلاء المتوحشين ، يكرههم حتى الموت » ٠ وبقى شاخصا لحظة

ثم قال : « عندما ترى السيد كورتز اخبره نيابة عني ان كل شيء هنا ‥ » ونظر الى المقعد « كل شيء بحالة مرضية ، لا احب ان اكتب له ـ فبمراسلين كالذين يعملون عندنا لن تعرف من سيفتح رسالتك ـ في تلك المحطة المركزيـــة » ٠ وحـدق في لحظة بعينيه الرقيقتين الجاحظتين : « انه سيذهب بعيدا ، بعيد جدا » ثم بدأ ثانية : « سيكون شخصية هامة في الادارة عما قريب ، انهم هناك في اوروبا يريدونه ان يكون كذلك » ٠

استدار متابعا عمله ٠ كانت الضجة في الخارج قد توقفت ، وبينما انا خارج وقفت بالباب ، كان الذباب يطن بانتظام والموظف المتوجه نحو الوطن مستلق افقدته الحمى صوابه اما الاخر فقـــد انحنى فوق اوراقه يصحح معاملات الدخول المضبوطة جيدا ، وعلى عمق خمسين قدما تحت عتبة الباب امكنني رؤية قمم الاشجـار الساكنة في غابة الموت ٠

في اليوم التالي غادرت المحطة اخيرا مع قافلة من ستين رجلا في رحلة على الاقدام مسافة مائتي ميل ٠ لا فائدة من اخباركم عن ذلك ٠ ممرات ٠ ممرات في كل مكان ، شبكة مـن الممرات شقتهـا الخطى تغطي الارض الخالية عبر العشب الطويل ، عبر العشب المحروق وعبر الاجمات نزولا وصعودا في المنحدرات الباردة صعودا ونزولا في التلال الحجرية التي ألهبتها شدة الحرارة ووحدة ، وحدة لا أحد ولا كوخ ٠ كان السكان قد رحلوا منذ زمن بعيد ٠ حسن ، لو بدأت مجموعات من الزنوج الغامضين المزوديــن بأنواع الاسلحة المخيفة بالقدوم فجأة عبر الطريق مـــن ديل الى « غريفسيند » مطاردين الفلاحين يمينا ويسارا ليجبروهـم علـــى حمل الاحمال الثقيلة لهم ، اعتقد ان كل المزارع والاكواخ المحيطة بتلك المنطقة ستخلو من اصحابها خلال فترة وجيزة ٠ هنا ذهبت المساكن ايضا ٠ غير انني مررت عبر بعض القرى المهجورة ٠ ثمة شيء طفولي يثير الحزن في حطام تلك الجدران العشبية ٠ يوما بعد يوم مضيت تتبعني خطى ستين زوجا من الاقدام العارية ينوء كل منها تحت ثقل ٦٠ ليبرة ٠ تخييم وطبخ ونوم وتفكيك المخيم فمسير ٠ وبين الحين والحين يموت احـــد الحمالين في حمـى العمل ٠ يرتاح بين

الاعشاب الطويلة قرب الممر بقرعة فارغة وعكازه الطويل الى جانبه • هدوء عظيم حولنا وفوقنا • ربما تخفت ارتعاشة الطبول البعيدة المتلاشية المتصاعدة في المدى • صوت مشؤوم مستغيث موح ووحشي عميق المعنى كصوت الاجراس في بلد مسيحية ، حيث الرجل الابيض يرتدي بذلة رسمية غير مفكوكة الازرار يخيم قرب الممر مع مرافقيه المسلحين الزيجباريين المهزولين مضيافا جذلا ، ولا اقول سكران يعلن ان هدفه هو الحصول على اجر صيانة الطريق، لكنني لم أر طريقا او صيانة بل جسد زنجي كهل اخترقت رصاصة جبهته تعثرت به قدماي على بعد ثلاثة اميال • لربما اعتبر ذلك نزوعا ابديا نحو الراحة • كان لي رفيق ابيض ايضا • لم يكن سيئا لكنه كان مكتنز الجسم • من عاداته المزعجة انه كان يفقد وعيه الى جوانب التلال الحارة على بعد اميال من اصغر بقعة ظليلة او ماء • ان من المزعج أن تنشر معطفك ليظلل رأس رجل ليفيق من اغمائه • لم استطع منع نفسي من سؤاله مرة عما يعنيه قدومه الى هناك فقال باحتقار : « لأجني مالا بالطبع ، اتعتقد غير ذلك ؟ »

وبعد ذلك اصيب بالحمى مما استدعى حمله على محفة تثبتت الى عمود • ولان وزنه كان يزيد على ستة عشر ستون (١) لم تنته مشاجراتي مع الحمالين الذين رفضوا المسير وتسللوا هربا بأحمالهم ليلا – تمرد كامل • وفي صباح اليوم التالي وضعت المحفة في المقدمة ليسير كل شيء على ما يرام ، وبعد ساعة فوجئت بكل شيء يتحول الى حطام فوق احدى الشجيرات • رجل ومحفة وانين واغطية ورعب • كان عمود المحفة الثقيل قد ادمى انفه من الاحتكاك وقد خشي ان اقتل احد الحمالين ، ولكن لم يكن هناك ظل لاحدهم فتذكرت قول الطبيب العجوز « قد يكون من المثير للعلم ان يراقب التغيرات الذهنية للافراد فور حدوثها » • شعرت انني اتحول الى انسان مثير علميا لكن كل ذلك كان عبثا •

في اليوم الخامس عشر رأيت النهر الكبير مرة اخرى فتوجهت نحو المحطة المركزية التي كانت تقع قرب ماء راكد تحيط به

---

(١) ستون : وحدة وزن انكليزيه تعادل ١٤ باوند .

اشجار وغابات كانت تحيط بأحد جوانبها الوحول المنتنة بينما احاط الجوانب الثلاثة الاخرى سياج مكسر من نبات السمار ٠ ولم يكن يدل على وجود البوابة غير فجوة مهملة ٠ كانت نظرة واحدة للمكان كافية لتعريفك بأي شيطان يدير ذلك المشهد ٠

خرج من بين البنايات بعض الرجال البيض يحملون في ايديهم هراوات طويلة وتقدموا بكسل نحوي ثم ما لبثوا ان اختفوا عن ناظري في مكان ما ٠ تقدم احدهم ، وهو رجل متين البنية عصبي المزاج له شارب اسود وحالما اخبرته بمن اكون ابلغني بطريقة لا تخلو من تشعب واستطراد بأن زورقي البخاري في قاع النهر فصعقت ٠ ماذا ؟ كيف ؟ ولماذا ؟ ولكن ٠٠ « كل شيء » كان « على ما يرام » ٠

فقد كان « المدير بنفسه » هناك ٠ كل شيء يبدو صحيحا ٠ « الجميع تصرفوا بشكل رائع » ٠ واضاف باهتياج « عليك ان تذهب لمقابلة المدير العام حالا انه ينتظرك » ٠

لم ادرك اهمية ذلك الحطام على الفور ٠ لكأنني أراه الان لكنني غير متأكد على الاطلاق على الاطلاق ٠ من المؤكد ان الامر – عندما افكر به – كان اكثر عبثية من ان يكون طبيعيا ٠ ولكنه بدا في تلك اللحظة ازعاجا مخزيا لا اكثر ٠ لقد غرق الزورق ٠ كانوا قبل ذلك بيومين قد توجهوا به الى أعلى النهر والمدير على ظهره مع بعض الربابنة المتطوعين ، وقبل مضي ساعتين على خروجهم تحطم قاعه اثر اصطدامه ببعض الحجارة فغرق قرب الضفة الجنوبية ٠ تساءلت عما عساني افعل وقد فقدت زورقي ٠ لقد كان علي ان افعل الكثير لانتشال موقع سلطتي من قاع النهر ٠ وكان علي ان اتوجه الى هناك في اليوم التالي وقد استغرقني ذلك مع الاصلاحا تالتي بدأت بعد احضاري القطع الى المحطة بضعة اشهر ٠

كانت مقابلتي الاولى مع المدير غريبة ٠ اذ انه لم يدعني للجلوس بعد مسيرة عشرين ميلا ذلك الصباح ٠ كان مظهره واسلوبه وصوته كلها عادية ، متوسط الحجم عادي البنية وكانت

عيناه الزرقاوان من البرودة بحيث يستطيع اسقاط نظراته الحادة الثقيلة كحد الفأس على من يريد ٠ ولكنه حتى في تلك الاثناء كانت بقية ما فيه تنفي مثل هذا القصد ، والى جانب ذلك لم يكن هناك غير تعبير باهت على شفتيه ، شيء غامض ، ابتسامة ـ لا ٠ شيء اذكره تماما لكنني لا استطيع شرحه ٠ كانت تلك الابتسامة باطنية رغم انها كانت تقوى بعد قول شيء ما مثلا ٠ كانت تأتي في نهايات جملة كالختم يوضع على الكلمات ليحيل معنى اكثرها شيوعا الى غموض مطلق ٠ كان تاجرا عاديا عمل منذ شبابه في تلك الانحاء لا اكثر ٠ كان يفرض الطاعة لكنه لم يكن يوحي بحب او برهبة ولا باحترام بل بعدم الارتياح ، نعم عدم الارتياح ٠ لا عدم ثقة ، بل عدم ارتياح ليس غير ٠ لا يمكنكم تصور مدى تأثير مثل تلك الـ ٠٠٠ القدرة ٠ لم تكن لديه ملكة التنظيم او المبادرة ولا اصدار الاوامر ٠ كان ذلك واضحا في اشياء كثيرة كوضع المحطة البائس ٠ لم يكن ذا علم او ذكاء ٠ لماذا حال المركز اليه ؟ ربما لانه لم يصب بمرض ابدا وكان قد خدم ثلاث فترات بثلاث سنين هناك ٠٠٠ او لأن الصحة الجبارة بين جموع من البنى الضعيفة هي في حد ذاتها قوة ٠ كان عند عودته الى الوطن اثناء الاجازة يعربد بغطرسة ـ جاك الشواطىء ـ مع قليل من الاختلاف في المظهر ٠ هذا ما كان بالامكان استنتاجه من خلال حديثه العادي ٠ لم يبتكر شيئا يوما ٠ كان بامكانه المحافظة على الروتين جاريا ـ كما هو ـ لا اكثر ،لكنه كان عظيما ،كان عظيما بذلك الشيء الصغير الذي يستحيل معه ان تدرك اية قوة يمكنها السيطرة على ذلك الرجل ٠ ولم يسلم ذلك السر ابدا بل ربما لم يكن هناك ثمة سر بداخله ومثل هذا الشك يجعلك تتوقف ، اذا لم تكن هناك اية دلالة خارجية على ذلك ٠ في احدى المرات وكانت الامراض الاستوائية قد طرحت كل موظفي المحطة ، سمع يقول : « الرجال الذين يأتون الى هنا يجب ان يكونوا بلا احشاء » ٠ ثم ختم حديثه بابتسامته تلك التي بدت وكأنها باب يفضي الى ظلمة يتعهدها ٠ تتخيلون بأنكم قد رأيتم اشياء لكن الختم قد طبع ٠ وعندما كانت تزعجه شجارات البيض المستمرة في اوقات وجبات الطعام حول الاسبقية كان يأمر بتجهيز طاولة مستديرة بني لها فيما بعد بيت خاص ٠ كانت تلك غرفة « الكراكيب » في المحطة ٠ كان لمكان جلوسه الافضلية اما الاخرون

فلا مكان لهم · تشعر احيانا ان هذا هو ما يريد فهو لم يكن متمدنا ولا غير متمدن كان هادئا ، يأمر « صبيه » ـ وهو شاب زنجي متخم من الساحل ـ ان يعامل البيض باهانة مستفزة امام ناظريه ·

بدأ الحديث حالما رآني وكنت قد قضيت مدة طويلة في الطريق الا انه لم يصبر فبدأ بدوني · كان يجب انقاذ المحطات في اعلى النهر · وقد كانت هناك تأخيرات كثيرة لم يعد يعرف معها من مات ومن لم يزل على قيد الحياة وماذا اصابهم وغير ذلك بكثير · لم يبد اي اهتمام بتفسيراتي لكنه اثناء لعبه بعصا مصنوعة من شمع الاختام اعاد على مسمعي عدة مرات ان الوضع « خطير جدا ، خطير جدا » وكانت هناك شائعات عن ذعر يجتاح احدى المحطات المهمة وان رئيسها السيد كوتز مريض فرجـــوت الا يكون ذلك صحيحا · لقد كان السيد كورتز ··· وشعرت بالتعب والانهيار · « اللعنة كورتز » فكرت ، ثم قاطعته بقولي انني سمعت بالسيد كورتز على الساحل فتمتم لنفسه قائلا : « آه اذن فهم يتحدثون عنه هناك » · ثم بدأ يؤكد لي من جديد ان السيد كورتز كان افضل موظف لديه · رجل لا كالرجال واهميتــه للشركة لا تقدر · وهكذا فهمت سبب قلقه · فلقد كان حسب قوله « غير مرتاح بالمرة ، بالمرة · » وتململ فوق كرسيه لبعض الوقت ثم قال « آه السيد كورتز » وكسر العصا الشمعية وبدا ذاهلا من الحادث · وبعد ذلك أراد ان يعرف « كم يستغرق ··· » فقاطعته ثانية اذ ادى الجوع ووقوفي الطويل الى ثورة وحشية · قلت « وكيف يمكنني ان اعرف وانا لم ار الحطام بعد · شهور بدون شك » وبدا لي ذلك الحديث عبثا · قالَ : « شهور ، حسنا،لنقل ثلاثة اشهر قبل ان تبدأ · نعم ، فهذا كاف لانجاز الامر » ·

وسارعت خارجا من كوخه (اذ كان يعيش وحيدا في كـوخ طيني له ما يشبه الشرفة) وانا اردد بيني وبين نفسي رأيي فيه كأبله مهذار ، لكنني عدت عن هذا الرأي عندما تذكرت مجفلا بأي رقة قدر الوقت المطلوب لانجاز الامر ·

عدت للعمل في اليوم التالي موليا ظهري للمحطة · وبدا لـي انه بهذه الطريقة فقط يمكنني السيطــرة على حقائق الحيـــاة

المحررة ٠ لكن ترى احيانا ان عليك ان تنظر حولك ، وهكذا رأيت المحطة واولئك الرجال الذين يسيرون بلا هدف في الساحة التـــي اصلتها اشعة الشمس ٠٠ لطالما سألت نفسي عن معنى كل ذلك ٠ كانوا يجولون هنا وهناك بعصيهم السخيفة في ايديهم كجمع مـن الحجاج الكفرة المسحورين داخل سياج عفن ٠ وكانت كلمة « عاج »، تملأ الاسماع همسا وتنهدا حتى لكأنهم كانوا يصلون لها ٠ نفخت فيها جرثومة الجشع الاحمق فنشرتها كهبة ريح قادمة من جيفة ٠ يا الهي ٠ لم ار في حياتي ما هو اكثر زيفا ٠ وفي الخارج كان الخلاء الساكن المحيط بهذه البقعة من الارض يذهلني كشيء عظيم لا يقهر ، كالشر او كالحقيقة تنتظـــر بصبر نافد انتهـــاء الغزو الخيالـــي ٠

تلك الاشهر ٠ حسنا ، لا يهم ٠ لقد حدثت اشياء كثيرة ٠ فذات مساء انفجرت حظيرة عشبية مليئـــة بالخـام والقطن والقماش المزركش والقلائد واشياء اخرى لا اعرفها محدثة حريقا فجائيا ٠ بدا كما لو ان الارض انشقت واطلقت نيرانها الثائرة لتأتي علـى تلك النفاية ٠ كنت ادخن غليوني بهدوء الـى جانب زورقي المفكك اشاهد الرجال يقطعون الكبر (١) في ضوء النيران بأيديهم المرفوعة عاليا عندما اتى الرجل المتين ذو الشوارب لينتشل من النهر دلوا من الصفيح مؤكدا لي ان الجميع « كانوا يتصرفون بشكل رائع ، رائع » وغرف ما يساوي ربعه من الماء وقفل عائدا ٠ ولاحظت ان هناك ثقبا في مقر الدلو ٠

اتجهت الى الاعلى ببطء فلم يكن ثمة داع للعجلة ٠ كـان الشيء كله قد تحطم كعلبة كبريت ولم يكن هناك امل منذ البداية٠ كان اللهب قد امتد مجبرا الجميع على التراجع ، مضيئا كل شيء ، ثم خبا محولا الحظيرة الى كومة مـــن الحطب المتأجج بوحشية ٠ وكان زنجي قيل انه تسبب في اشعال الحريق يضرب على مقربة من هناك وسواء كان ذلك صحيحا ام لا فالرجل اطلق صرخات ألم رهيبة ٠ رأيته بعد ذلك بأيام جالسا في بقعة ظليلة يبدو عليـــه

---

(١) الكبر : نبات تخلل ازهاره وثماره .

المرض محاولا اشفاء نفسه وبعد ذلك نهض متجها الى حيث احتوته البرية في جوفها بصمت من جديد ٠

بينما كنت اتقدم من الظلام الى حيث الوهج وجدت نفسي خلف رجلين يتحدثان ، وسمعت اسم كورتز يتردد ثم « استفد من ذلك الحادث السيء » ٠

كان المدير احد هذين الرجلين ٠ تمنيت له مساء طيبا فقال « هل شاهدت في حياتك شيئا مثل هذا ؟ انه غير معقول » ومضى ذاهبا ، لكن الاخر بقي ٠ كان موظفا من الدرجة الاولى ٠ شاب مهذب متحفظ قليلا له لحية مفروقة وانف اقني ٠ كان منعزلا عن الموظفين الاخرين الذين كانوا يقولون انه يتجسس عليهم لصالح المدير ٠ اما بالنسبة لي فلم اكن قد تحدثت معه الا نادرا ٠ تحادثنا ، وشيئا فشيئا ابتعدنا عن الحطام الذي كان يخرج صوتا كالهسيس ثم دعاني الى غرفته في مبنى المحطة الرئيسي ٠

اشعل عود ثقاب فأدركت ان هذا الشاب الارستقراطي لم يكن يملك حقيبة مطلية بالفضة فحسب وبل شمعة كاملة خاصة به ايضا ٠ فحتى ذلك الوقت كان المدير هو الوحيد الذي له الحق المفترض في الشموع ٠ كانت الحصائر المحلية تغطي الجدران الطينية ومجموعة من الحراب والرماح والتروس والسكاكين معلقة تذكارا للصيد ٠ كان العمل الموكل لهذا الشاب هو صنع الطوب هذا ما كنت اخبرت به ولكن لم تكن هناك قطعة طوب واحدة في المحطة بأسرها رغم انه كان هناك منذ اكثر من سنة - في الانتظار - ٠ بدا وكأن صنعه للطوب يتطلب شيئا لا ادري ما هو ٠ قش ربما ٠ الا انه لم يكن موجودا هناك على اية حال ولان ارساله من اوروبا كان مسألة غير محتملة ، فانني لم اتبين سبب انتظاره ٠ ربما لنوع من الخلق الخاص ٠ لقد كان الجميع ينتظرون - جميع الحجاج الستة عشر او العشرين ينتظرون شيئا ما ، ولم يبد لي ذلك انشغالا غير متجانس بسبب الطريقة التي مارسوا الانتظار بها ٠ ورغم ذلك لم يأتهم غير المرض ، كما لاحظت ٠ كانوا يقضون اوقاتهم متسلين بالنميمة وبالتآمر على بعضهم بعضا بطريقة حمقاء ٠ كان جو من

التآمر يحيط بتلك المحطة لكن شيئا لم ينتج عنه بالطبع · كان ذلك زائفا مثل اي شيء اخر - كالود الكـاذب تجاه الامر كلـه كحديثهم كحكومتهم كادعائهم بالعمل · كان الشعور الحقيقـي الوحيد هو الرغبة في التعيين بمكتب تجاري حيث يمكن الحصول على العاج ، ليتمكنوا من الحصول على نسب من الارباح · مـن اجل ذلك تآمروا وافتروا وحقدوا على بعضهم بعضا ، لكن احدهـم لم يرفع خنصره ليعمل بجد · لا لم يفعلوا · بحق السماء ان هنالك امرا في هذا العالم الذي يسمح لشخص ان يسرق حصانا بينما يحرم اخر من النظر الى رسن · يسرق حصانا في وضع النهار · حسن جدا· لقد فعلها · ربما يستطيع الركوب · لكن هناك طريقة في النظـر الى رسن تستفز اطهر القديسين ·

لم تكن لدي فكرة عن سبب تصرفه بشكل ودي ولكن ما ان بدأنا نتحدث هناك ، حتى خطر لي ان زميلي يحاول الوصول الى شيء ما - كان يستجوبني في الواقع - الح الى اوروبا باستمرار · الى الناس الذين يفترض اني عرفتهم هناك موجها اسئلة تقود نحو معارفي في المدينة الضريحية - وغير ذلك · كانت عينـاه الصغيرتان تلتمعان كاسطوانات الميكه (١) ولكن بلا فضول ، رغم انه حاول ان يبقي على شيء من الانفة · دهشت في البداية لكنني ما لبثت ان استعجلت رؤية ما يمكنه ان ينتزع مني ، فلربما لـم استطع تخيل ما بداخلي مما استطيع افادته به · كان مـن الممتع مشاهدته مرتبكا · اذ لم يكن داخل جسدي غير البرود ولم يكـن داخل رأسي غير العمل بذلك المركب التعس · كان من الواضح انه حسبني مراوغا بلا حياء · فلقد غضب على الاقل · ولكي يخفـي حركة تدل على الانزعاج الحانق تثاءب · نهضت ، وشاهدت رسما زيتيا على لوحة يمثل امرأة منحنية معصوبة العينين تحمل مشعلا مضـاء ·

كانت خلفية الصورة كئيبة عامة السواد وكانت حركة المرأة

---

(١) الميكه : مادة شبه زجاجية يمكن شطرها الى رقاقات تستعمل عازلا كهربائيا ·

مهيبة اما تأثير ضوء المشعل على وجهها فكان شريرا . اسرني المشهد ، ووقف هو على مقربة بأدب يحمل زجاجة شمبانيا صغيرة فارغة (عزاء طبيا) وقد ثبتت عليها الشمعة . قال مجيبا على سؤالي ان السيد كورتز قد رسم ذلك - في هذه المحطة قبل عام - بينما كان ينتظر ما يقله الى مكتبه التجاري . قلت له :

« اخبرني من فضلك من هو السيد كورتز هذا ؟ » فأجاب باختصار وهو ينظر في البعد : « رئيس المحطة الداخلية » اجبت ضاحكا « اشكر فضلك . وانت صانع الطوب في المحطة المركزية الكل يعرف ذلك » .

صمت فترة من الزمن ثم قال اخيرا :

« انه اعجوبة . انه رسول الشفقة والعلم والتقدم ويعلم الشيطان رسول اي شيء اخر هو . اننا نريد ... » وبدأ فجأة كمن يلقي خطابا « ... من اجل نشر الهدف الذي اوكل الينا في اوروبا ، درجة ذكاء عالية وتعاطف اشمل ووحدة هدف » .

سألته « ومن يقول ذلك ؟ » اجاب « كثيرون منهم ، وبعضهم يكتب هذا ايضا ، وهكذا فانه يأتي الى هنا مخلوقا متميزا كما يجب ان تعلم » .

« ولماذا علي ان اعلم » قلت مقاطعا وقد اصابتني الدهشة الا انه لم يكترث . « نعم انه اليوم رئيس افضل محطة وفي العام القادم سيكون مديرا مساعدا وبعد ذلك بعامين .. لكنني اجرؤ على القول انك تعرف ماذا سيصبح خلال عامين . انك من العصابة الجديدة ، عصابة الفضيلة فالذين ارسلوه على وجه الخصوص قد اوصوا بك ايضا . لا تقل غير ذلك فلدي عينان اصدقهما » .

غمرني الضوء رويدا رويدا . لقد مارس معارف خالتي العزيزة المتنفذون تأثيرا لم اتوقعه على ذلك الشاب ، وكدت انفجر بضحكة . سألته : « وهل تقرأ مراسلات الشركة السرية ؟ » لم يكن لديه ما يقول . كان ذلك مضحكا جدا . وتابعت بقسوة :

« طالما ان السيد كورتز هو المديـــر العـــام فلن تتـــاح لك الفــرصة » ٠

اطفأ الشمعة فجأة وذهبنا سوية الى الخارج ٠ كان القمر في وسط السماء واشباح رجال تسير متراخية تصب دلاء الماء على الوهج بينما استمر صوت الهسيس ، وتصاعـــد البخار في ضوء القمر ومن مكان في الجوار اتى صوت انين الزنجي المضروب ٠

« اية ضجة يثيرها ذلك المتوحش » قال ذو الشوارب الذي لا يعرف الكلل وهو يقترب منا : « كانت عقوبة مناسبة ، خطيئة ، عقاب ، ضرب بلا شفقة ، بلا شفقة تلك هي الطريقة الوحيدة لمنع اي حريق في المستقبل ٠ كنت لتوي اقول للمدير ٠٠٠ » ٠

ولاحظ رفيقي فشعر بالخزي ثم قال بمودة ذليلة : « ألم تنـم بعد ، ان ذلك طبيعي فعلا ، ها ! خطر ، قلق » واختفى ٠

تابعت سيري الى ضفة النهر والاخر يتبعني وترامت الـــى مسمعي همهمة مريرة « لا يساوون كومة من القش » ٠

كان الحجاج المنقسمون الى مجموعـــات يثرثرون ويناقشون والكثيرون منهم يحملون العصى بأياديهم ،واعتقد جادا انهم كانوا يأخذونها معهم عندما ينامون ٠ وخلف السياج ظهر جسم الغابة الشبحي في ضوء القمر ومن خلال الحركة الخفيضة والاصوات الخافتة الاتية من الساحة المنكوبة مضى سكون الارض ليستقر في القلـب بسريته ، بعظمته ، بالحقيقة المحيرة لحياته الخفية ٠

ان الزنجي الجريح بوهن في مكان قريب ٠ ثم اخرج زفـــرة عميقة جعلتني اسرع الخطو بعيدا عن ذلك المكان ، حيث شعرت بيد تحت ذراعي : قال الرجل : « سيدي لا اريدك ان تسيء فهمي ، خاصة وانك ستقابل السيد كورتز قبل ان اتشرف بهذه المقابلـة بكثير ٠ ولا اريده ان يأخذ فكرة خاطئة عن تصرفي ٠٠٠ » ٠

ذهب مفيستوفيلس الورقـــي وقد بـدا لي انني لو حاولت لاستطعت اختراقه باصبعي حيث لن اجد غير قذارة متخللة ، ربما٠ لقد كان كما تلاحظون يخطط ليصبح المدير المساعد عما قريب تحت امرة المدير الحالي ولاحظت ان مجيء كورتز هذا قد ازعج الاثنين ٠

تحدث باسهاب ولم احاول ان اوقفه ۰ كنت اتكىء الى حطام ورقي الذي كان قد سحب فوق المنحدر كهيكل حيوان نهري ضخم ۰ كانت رائحة الطين ، الطين العتيق تملأ خياشيمي وسكون الغابة البدائية امامي ، وكانت هناك بعض البقع المتوهجة قرب الجدول الاسود والقمر قد نشر غلالة فضية رقيقة فوق كل شيء ، فوق العشب العفن والطين وجدار الخضرة القاتم الذي يفوق في علـوه جدار معبد ، وفوق النهر العظيم الذي كنـت اراه من خلال فتحة كئيبة متلألئا طافحا يجري في الجوار دون نأمة ۰ كـان كل ذلـك عظيما ، منتظرا ، صامتا بينما الرجل يهذر بحديث عن نفسه ، وتساءلت عما اذا كان السكون المخيم فوق وجه البسيطة الناظر الينا نحن الاثنين يدعونا أم يهددنا ۰ ماذا كنا نحن ، الضالين في هـذه البقعة ؟ هل يمكننا السيطرة على ذلك الشيء الصامت ؟ أم هو الذي سيسطر علينا ؟ أحسست كم كان ذلك الشيء الابكم وربما الاصم ايضا كبيرا ، كبيرا بشكـل مقيت ۰ ما الذي كـان يجـري هناك ؟ أمكنني رؤية بعض العاج يخرج من هناك وكنت سمعت أن السيد كورتز كان هناك ولقد سمعت عن ذلك بما فيه الكفاية ايضا ۰ لكنني لم ارسم اية صورة له – ليس اكثر مما لو سمعت أن ملاكا أو شيطانا كان هناك سكانا على كوكب المريخ ۰ عرفت مرة صانع اشرعة اسكتلنديا ۰ كان مقتنعا تماما بوجود سكـان في المريخ ، وكان لو سأله احدهم عن مظهرهم أو الطريقة التـي يتصرفون بها يخجل ويتمتم شيئا عن « مشيهم على اربع » واذا ابتسمت عندها فانه يطلبك للنزال رغم انه في الستين من عمره ۰ لم اكن لاذهب بعيدا الى حد القتال من اجل كورتز ولكنني وصلت حد الكذب ۰ تعلمون أنني أكره الكذب ۰ أمقته ولا أستطيع احتماله لا لأنني أكثر استقامة من الاخرين بل لانه يرعبني ۰ ان فيه عفن الموت ونكهة الفضيلة وهو عين ما أكره وأمقت في هذا العالم وما أود أن أنسى ۰ انه يشفيني ويسقمني كما يفعل في قضم شيء عفن ۰ حساسية كما أعتقـد ۰

حسنا ، لقد اقتربت منه بما فيه الكفاية عندما جعلت ذلـك الشاب الاحمق يصدق كل ما يود تخيله عن نفوذي في اوربا ۰ وقـد أصبحت للحظة لا أقل ادعاءا عن بقية الحجاج المسحورين ۰ كـان

ذلك بسبب فكرة كانت ستساعد كورتز الذي لم أكن قد قابلته بعد · كان بالنسبة لي كلمة · لم أر الرجل بأكثر مما ترونه · أترونه ؟ أترون القصة ؟ أترون أي شيء ؟ يبدو لي وكأنني أحدثكم عن حلم · أقوم بمحاولات عبثية لانه ليس هناك من رابط يستطيع ايصال أحاسيس الحلم ، ذلك المزيج من العبث والدهشة والحيرة في ارتعاشة ثورة كفاحية ، فكرة ان يأسرك اللامعقول الذي هو من صميم الحلم ·

وصمت فترة ·

« لا مستحيل ، مستحيل ان توصل احاسيس الحياة في اية فترة من وجودك - تلك التي تصنع حقيقتها ، معناها ، جوهرها الحاد الخارق ، مستحيل · اننا نحيا ، عندما نحلم ، بمفردنا » ·

وتوقف مرة أخرى كمن يفكر مليا ثم تابع - « انكم بهذا ايها الاصدقاء ترون أكثر مما كنت أرى بالطبع أنكم ترونني ، ترون شخصا تعرفونه ···· »

كان الظلام قد اصبح دامسا لدرجة أننا نحن ، المستمعين ، كنا بالكاد نرى بعضنا بعضا · وكان هو منذ وقت طويل من جلوسه على حدة قد تحول الى صوت لا اكثر بالنسبة لنا · لم يتفوه أحدنا بكلمة · وربما كان الاخرون نائمين لكنني كنت يقظا أستمع · أصغيت لكل جملة وكل كلمة كان من شأنها أن تعطيني دليلا على القلق الخفيض الذي كانت توحي به تلك الحكاية التي بدت وكأنها تشكل نفسها دون شفاه آدمية في هواء النهر الليلي الثقيل·

« نعم تركته يسير ··· »

بدأ مارلو من جديد

« ··· وينسج ما يود حول القوى التي تقف خلفي ، نعم ؛ لكن شيئا لم يكن خلفي سوى ذلك المركب المحطم القديم التعس الذي كنت اتكىء عليه ، بينما راح هو يتحدث بطلاقة عن « ضرورة أن ينجح كل شخص » « وعندما يأتي شخص هنا تدرك أنه لم يأت للتطلع الى القمر · » كان السيد كورتز « عبقريا كونيا » ولكن حتى العبقري يجد أن من الاسهل له التعامل مع « الادوات الصحيحة

ـ الرجال الاذكياء » · لم يصنع الطوب ـ لقد كانت هنالك عوائق جسدية تحول دون ذلك ـ كما كنت علمت من قبل · وان كان يقوم بأعمال السكرتارية للمدير فما ذلك الا لان « أي شخص عاقل لا يمكن أن يرفض بطيش ثقة رؤسائه » هل رأيت ذلك ؟ لقد رأيته · وماذا كنت اطلب اكثر من ذلك ؟ مسامير · هذا وحق السماء ما كنت اطلب · مسامير · لأبدأ العمل ، لأسد الثقب · كنت اريد المسامير · كانت هناك حقائب منها عند الشاطىء حقائب مكومة ، ممزقة ، مشقوقة وفي كل خطوة واخرى كانت قدمك تتعثر بمسمار في ساحة المحطة الى جانب التل وبعضها وصل الى غابة الموت · كان بامكانك ان تملأ جيوبك بالمسامير لكي توفر على نفسك مشقة الانحناء ولكن لم يكن هناك مسمار واحد حيث كان مطلوبا · كانت لدينا سبائك يمكن أن تفي بالغرض ولكن لم يكن لدينا ما نثبتها به · وفي كل اسبوع كان المراسل ، وهو زنجي متوحد يغادر محطتنا الى الشاطىء بحقيبة الرسائل على كتفه وعصا في يده · وكانت قافلة من الساحل تأتي عدة مرات كل اسبوع بالبضائع ، قماش خام ، براق ، مشع يجعل الجسم ينتفض بمجرد النظر اليه ، وشراب يبلغ ثمن الكورت (١) منه بنسا واحدا ومناديل قطنية منقطة بشكل غير منتظم ، ولكن لا مسامير · كان بامكان ثلاثة حمالين ان يحضروا كل ما يلزم لاصلح المركب ·

كان قد بدأ يصبح اكثر ثقة لكنني اعتقد ان موقفي غير المتجاوب قد اغضبه على الاقل · اذ رأى أن من الضروري ابلاغي انه لا يخشى الها ولا شيطانا ، ناهيك عن الرجال · قلت له أنني أرى ذلك جيدا لكن كمية محدودة من المسامير كانت كل ما أريد ولو عرف السيد كورتز ذلك لاراد المسامير هو الاخر · ان الرسائل تذهب الى الشاطىء كل اسبوع ··· »

« سيدي ، انني اكتب بناء على امر » صرخ قائلا : لعنت المسامير ، لا بد أن هناك طريقة ما امام رجل ذكي · غير اسلوبه · اصبح اكثر برودا ، وفجأة بدأ يتحدث عن فرس

---

(١) الكورت : مقياس للسوائل يساوي ربع غالون ·

البحر • لم يزعجني ذلك (وكنت افكر بانقاذ مركبي ليلا ونهارا) بل تساءلت عما اذا كنت سأنام فوق الزورق • كان هنالك فرس بحر عجوز تعود أن يخرج الى ضفة النهر ليلا ويتجول في انحاء ارض المحطة • وكان من عادة الحجاج أن يتجمعوا ويفرغوا كل بندقية كانت تقع تحت ايديهم عليه ، بل ان بعضهم انتظره ليالي لكن كل تلك الطاقة ذهبت هباء •

كانت لذلك الحيوان حياة مسحوره « قال الرجل » ولكن بامكانك ان تقول هذا فقط عن المتوحشين في هذا البلد • لا أيها الرجل انك تفهمني • لا أحد هنا يحتمل حياة مسحوره •

وقف لحظة تحت ضوء القمر وقد امال انفه الاقنى الرقيق قليلا والتمعت عيناه الزجاجيتان دون أن تطرفا ثم مضى بعد أن تمنى لي « ليلة سعيدة » باقتضاب •

امكنني ان الاحظ انزعاجه وحيرته الكبيرة مما جعلني اكثر املا مما كنت طوال ايام • وكان عزاء كبيرا لي ان اتحول عن ذلك الشخص الى صديقي المتنفذ المهشم الملتوى المحطم ، الزورق وذلك الوعاء الصفيحي • تسلقت الى ظهر الزورق الذي كان يطرقع تحت قدمي كعلبة بسكويت فارغة ركلت فوق ميزاب • لم يكن صلبا دقيق الصنع ولم يكن شكله جميلا ،لكنني بذلت جهدا كبيرا جعلني احب هذا الزورق اذ لم يكن في وسع اي صديق متنفذ ان يخدمني افضل منه • لقد منحني الفرصة لان اعرف ما علي أن افعل • لا ، لا احب العمل بل افضل ان استرخي وافكر في جميع الاشياء التي يمكن فعلها • لا احب العمل - لا احد يحبه - انني احب ما في العمل - حيث الفرصة لايجاد ذاتك ، حقيقتك الخاصة بك ، لذاتك لا للاخرين - فذاك ما لا يمكن للاخرين أن يعرفوه • ان بامكانهم ان يروا الظاهر فقط لكنهم لا يعرفون ماذا يعنيه حقيقة•

لم ادهش لرؤية شخص يجلس في المؤخرة على ظهر المركب برجليه المتدليتين فوق الطين • كنت قد رافقت بعض الحرفيين في المحطة من اولئك الذين كان الحجاج الاخرون يحتقرونهم لنقائصهم السلوكية كما أعتقد • كان ذاك هو كبير العمال - كانت

حرفته الاصلية صنع المراجل - وكان عاملا جيدا • كان هزيلا بارز العظام اصفر الوجه ذا عينين واسعتين • كانت تبدو على وجهه سيماء الاضطـــراب اما رأسه فكـان املس كراحة يدي • لكـن شعره المتدلي بدا وكأنه ملتصق بذقنه حيث نبتت هناك بغزارة ، اذ كانت لحيته تتدلى لتصل خصره كان ارملا له ستة اطفال صغار (كـان قـد تركهـم في رعاية اخـت لـه ليأتـي الى هنـاك) وكانت متعة حياتـه هـي تطيـير الحمـام التـي كان شغوفا وخبيرا بها • كان مفتونا بالحمام • وكثـيرا مـا كان يأتـي مـن كوخه بعد ساعات من العمل ليتحدث عن اطفاله وحمائمه • وعندما كان يضطر اثناء عمله ، أن يزحف في الوحل تحت قاع المركب ، كان يربط لحيته بما يشبه الفوطة كان قد احضرها معه لهذا الغـرض لها اطراف يمررها من فوق اذنيه ، وفي المساء كان يشاهد جاثيا على ضفة النهر يفرك تلك الفوطه في الجدول بعناية فائقة ثم ينشرها بوقار فوق احدى الشجيرات لتجف •

صفعته على قفاه صائحا :

« سنحصل على المسامير » فهب واقفا على قدميه وقال كمـن لا يصدق أذنيه : « لا ! مسامير ! » ثم اضاف بصوت خفيض « أنت • هـه ؟ » •

لا أدري لم تصرفنا كالمجانين ، فقد وضعت اصبعي على طرف انفي واومأت بغموض •

« انك رائع » هتف قائلا ثم طرقع بأصابعه فوق رأسه رافعا احدى قدميه • وحاولـت أنـا أن ارقص وقفزنا فرحا فـوق ظهـر الزورق المعدني ، فصدرت قعقعه مخيفة من هيكله رجعتها الغابة العذراء في الضفة الاخرى من الجدول كقصف الرعد فوق المحطـة النائمة ، ولا بد أن ذلك ايقظ بعض الحجاج في اكواخهم • اذ ظهر شبح رجل حجب باب كوخ المدير المضاء واختفى ثم ظهر شبح ثان فآخر بعد ذلك ثم اختفى الباب نفسه ايضا •

وقفنا ، فساد من جديد الصمت الذي ذهبت به خبطات أقدامنا مرتدا الينا من البرية وكان جدار الخضرة العظيم ، وهو كتلة كثيفة من الجذور والاغصان والاوراق والفروع المتشابكة الساكنة في ضوء القمر اشبه بغزو عاصف لحياة صامتة ، موجة ملتفة من النباتات

المكومة المرتفعة الايلة للسقوط في الجدول ، القادرة علـى جرف كل الرجال الصغار منا نحو حتفهم ٠ لكنها لم تتحرك ٠ وتناهي الى أسماعنا عن بعد الانفجار المميت للزبد العظيم وبعض شخير كما لو أن سمكة الاكصور (١) كانت تستحم بألق النهر العظيم ٠ قال صانع المراجل بلهجة متعقلة :

« وما الذي يمنعنا من الحصول على المسامير ٠ »

ولم لا بالفعل، فليس هناك من سبب يحول بيننا وبين الحصول على المسامير قلت له بثقة :

« ستكون هنا خلال ثلاثة اسابيع » ٠

لكنها لم تأت بل اتت بدلا منها غزوة بلاء ، عقاب الهي ٠ أتـى على دفعات خلال الاسابيع الثلاثة التالية على رأس كـل دفعة منها حمار يحمل رجلا ابيض بملابس نظيفة واحذية غامقة ينحنون من ذلك العلو يمينا ويسارا للحجاج الدامعين ، وكانـت عصابة من الزنـوج النكديـن متقرحـي الاقدام يسوقون الحمر أمامهم ، وطرحت في الساحة الخيام والمقاعد الخفيفة والصناديق الحديدية والحقائب البيضاء والبالات البنيـة ، وخيم جـو مـن الغموض العميق على زحمة المحطة ٠ وصلت اربع دفعات مـن هذا القبيل بفوضاها السخيفة وأسلاب لا تعد من تجهيزات الحوانيت والمخازن وكأنهم كانوا يجرونهـا عقـب غزوة نحو خلاء القسمة العادلة ٠ كانت فوضى لا فكاك منها لاشياء مقبولة في ذاتها لكن حماقة البشر حولتها الى شيء أشبه بفساد السرقة ٠ كانت تلك العصابة تطلق على نفسها اسم « بعثة الدورادو الاستكشافية » وأعتقد أنهم قد تعاهدوا على السرية ٠ كان حديثهم أشبه بحديث المغامرين العتاة ٠ كان كلاما طائشا بلا قسوة ، شرها بلا تهور ، قاسيا بلا شجاعة ، لم تكن هناك ذروة من الحكمة او الجدية لدى أي من افراد تلك الحفنة ، ولم يكن يبدو أنهم يدركون ان هـذه الاشياء مطلوبة لعمل الدنيا ٠ كانت رغبتهم هي ان ينتزعوا الكنز

(١) الاكصور : نوع من الزواحف البحرية الضخمة المنقرضة ٠

من احشاء الارض دون ان يملكوا من الهدف النبيل ما يملك لص الخزائن • ولا ادري من الذي دفع ثمن المشروع النبيل لكن عم مديرنا كان قائد تلك الجماعة • كان بمظهره الخارجي اشبه بجزار في حي فقير تحمل نظراته خبثا ناعسا وقد حمل كرشه الضخم بمباهاة فوق رجليه القصيرتين • وخلال ذلك الوقت كانت عصابته تـزعج المحطة دون أن تكلم احدا غير ابن اخيه • وكان الاثنان يشاهـدان وهما يجوبان الانحاء طوال النهار برأسيهما المتقاربتين في مسامرة أبدية •

اقلعت عن اقلاق نفسي بالمسامير • ان قدرة استيعاب المرء لذلك النوع من الحماقة ممدود اكثر مما تتصورون • قلت انتظر ودع الاشياء تجري • كان لدي الكثير من الوقت للتأمل • وبين آن واخر كنت افكر بكورتز • لم اكن مهتما به • كلا ، لكنني كنت متشوقا لمعرفة ما اذا كان هذا الرجل الذي خرج بأفكاره الاخلاقية نوعا ما ، سيصعد الى القمة اخيرا وكيف سيدير عمله من هناك •

ذات مساء بينما كنتمستلقيا علـى ظهـر زورقي سمعت اصواتا تقترب ٠ كان العم وابن أخيه يتمشيان على طول الضفة ٠ توسدت ذراعي مرة أخرى وكدت اغفو حين همس شخص لي أنـه يقول :

« انني اقل ايذاء من قطعـة صغـيرة لكنني لا احب تلقـي الاوامر ٠ أأنا المدير أم لا ؟ لقد أمرت أن ارسله الى هناك لا يعقل » ٠٠٠٠ وبدأت ادرك ان كليهما يقفان على الشاطىء محاذيين مقـدمة الزورق ، أسفل رأسي مباشرة ٠ لم أقم بحركة ، لم يخطر ببالـي أن أقوم بأي حركة كنت نعسا ٠

« انه لمزعج بالفعل » قال العم بصوت أشبـه بنخرة خنزير فأجاب الاخر ٠

« لقد طلب من الادارة أن يرسل الى هناك املا أن يريهم ما بامكانه ان يفعل فصدرت الي الاوامر بناء على ذلك ٠ انظر الـى النفوذ الذي لا بد أن ذلك الرجل يملكه أليس رهيبا ؟ » ٠

ووافق الاثنان على انه كان رهيبا ، ثم ابديا بعض الملاحظات الغريبة « تمطر وتصحو ـ رجل واحد ـ المجلس ـ من الانف » نتف من جمل لا معنى لها استجاب لها نعاسي لكنني كنت اقرب الـى وعيي الكامل عندما سمعت العم يقول :
« ربما يتكفل الطقس بدلا منك بهذه الصعوبة ٠ اهو وحده هنا ؟ » فأجاب المدير :

« نعم ٠ لقد ارسل مساعده الـي حامـلا عبارة (ابعد هـذا

الشيطان التعس عن البلاد ولا تزعج نفسك بارسال المزيد من هذا النوع ، انني لافضل أن أكون وحيدا علـى أن يكـون معي رجال تستطيع التخلص منهم ٠) كان ذلك منذ اكثر من عام ٠ اتتصور مثل تلك الوقاحة ٠ »

سأل الاخر بخشونة :

« ـ اي شيء منذ ذلك الوقت ؟ » ٠

فأجاب ابن الاخ بتشنج : « عاج ، الكثير من العاج ، نوع ممتاز ، كميات كبيرة ، انه منزعج جدا منه » ٠

« وماذا ايضا ؟ » ٠

سأله الآخر مدمدما ٠

ـ « فاتــورة » ٠

دوت الاجابة ثم أعقب ذلك صمت كان الاثنان يتحـدثان عن كــورتز ٠

كنت عندئذ بكامل وعيي استلقي بارتياح ، ولم أجد داعيا لتغيير وضعي فبقيت ساكنا ٠

ـ « كيف وصل العاج طوال كل هذه الطريق ؟ »

زمجر الكبير وقد بدا محتدا فقال الآخر بأنه وصل بواسطـة اسطول من القوارب النهرية تحت أمرة موظف انجليزي مولد وكان مع كورتز وبأن كورتز اراد ان يستغل ثمنها بنفسه ، حيث كانت المحطة في ذلك الوقت خلوا من البضائع والمخزون ولكنه قرر فجـأة بعد مسير ثلاثمئه ميل أن يعود ، فبدأ بذلك على الفور وحيدا على ظهر قارب بدائي صغير بأربعة مجاذيف تاركا المولد أسفل النهر لمتابعة صفقة العاج ٠

بدا الرجلان ذاهلين من اي شخص يحاول القيام بمثل هذا العمل فقد كانا يفتقدان دافعا كافيا ٠ اما أنا فقد تبدى لي كورتز للمرة الاولى ٠ كانت تلك لمحة مميزة ٠ القارب البدائي واربعة مجذفين متوحشين والابيض المتفرد يولي ظهره فجأة للمركز طالبا الراحة وربما مفكرا بالوطن ميمما صوب أعماق البرية ، صوب محطته الخاوية المهجورة ٠ لم ادر ما هو الدافع ٠ ربما كان مجرد شخص رائع التصق بعمله لاجل ذلك العمل بذاته ٠

لم يكن اسمه قد ذكر مرة واحـدة كما تـرون · لم يكن غير « ذلك الرجل » اما المولد الذي رأيت انـه انجز رحلة صعبة جـدا بمهارة وشجاعة عظيمتين فقد كان يشار اليه « بذلك الوغـد » · وقد أبلغ الوغد « بأن الرجل » كان مريضا جدا وبأنه لم يشف تماما ·

خطا الرجلان اللذان كانا اسفل زورقـي بضـع خطوات وبدآ يتمشيان جيئة وذهابا على مبعدة · وسمعت :

« البريد العسكري ـ الطبيب ـ مئتاميل ـ وحيد تماما الان ـ تأخير اضطراري ـ تسعة أشهر لا اخبار ـ اشاعات غريبة » ·

وتقدما ثانية عندما بدأ المدير قوله :

« لا أحد حسب علمي سوى تاجر جوال ممروض ينتزع العاج مـن الاهالي » ·

ترى من ذاك الذي كانوا يتحدثون عنه ؟ واستطعت ان افهم من نتف الكلام انه لا بد احد الرجال من منطقة كورتـز لم يوافـق عليـه المدير ·

ـ « لن نتخلص من المنافسة غير الشريفة الا حين يشنـق احد هؤلاء الرجال كمثل » ·

ونخـر الاخـر ·

« بالتأكيد شنقه · ولم لا ؟ يمكن فعل اي شيء في هذه البلاد· أي شيء · وهذا ما أقوله : لا أحد هنا أتفهم ؟ هنا يتهدد مركزك ؛ ولماذا ؟ انك تحتمل المناخ وتتجاوزهم جميعا · ان الخطر في اوربا ولكن قبل أن اتي تأكـدت ···· »

تحرك الاثنان وتهامسا ثم ارتفع صوتهما مرة اخرى :

ـ « لم تكن تلك السلسلة من التأخيرات خطئي · لقد بذلت جهـدي » ·

وتنهد الرجلَ السمين ·

انـه لمحـزن ··

واكمل الاخـر :

« والسخف الخبيث في حديثه · لقد ازعجني كثيرا عندما كان هنا يجب ان تكون كل محطة كالمنارة في الطريق نحو الافضل · مركزا

تجاري بالطبع ولكن مركز للانسنه والاصلاح والبناء ايضا ... اتدرك ... ذلك الجحش ! ويريد ان يكون مديرا ! كلا انه ... »

وهنا اختنق بسخط متزايد ، ورفعت انا رأسي قليلا ففوجئت بمدى قربهما مني ٠ كانا تحتي مباشرة ٠ حيث امكنني ان ابصق على قبعتيهما ٠ كانا ينظران الى الارض ، تستغرقهما الافكار ، والمدير يضرب رجله بغصن نحيل بينما رفع قريبه الذكي رأسه ، وسأله :

« كنت على ما يرام منذ جئت هذه المرة ؟ » ٠
وأجفل الاخر :
ـ « من ؟ أنا » كان ذلك كالسحر ... كالسحر أما الاخرون ... يا الهي ... كلهم مرضى ، وهم يموتون بسرعة ايضا لدرجة انه لم يكن لدي وقت كاف لارسالهم خارج البلد ٠٠ انه لفظيع » ٠
وزمجر الثاني :
ـ « هكذا اذن ثق بهذا يا صغيري ٠ اقول ثق بهذا » ٠

ورأيته يمد ذراعه القصيرة بايماءة شملت الغابة والجدول والطين والنهر ، وبدت وكأنها باشارتها الدنيئة امام وجه البسيطة المضاء بنور الشمس ٠ تغرى بدعوة غادرة الى الموت المتربص ، الى الشر الكامن ، الى ظلمة قلبها العميقه ٠ كان ذلك مفاجئا لدرجة انني قفزت واقفا على قدمي انظر الى طرف الغابة كما لو كنت اتوقع جوابا من نوع ما على استعراض الثقة الاسود ذاك ٠ تعرفون الافكار الحمقاء التي تراودنا احيانا ! لقد واجه السكون المطبق هذين الشبحين بصبره المشؤوم منتظرا زوال غزو خيالي ٠

جدف الاثنان سويا ـ وشتما بدافع الخوف المطبق على ما أعتقد ... ثم استدارا نحو المحطة متظاهرين بأنهما لا يعلمان بوجودي

كانت الشمس منخفضة وقد انحنى الاثنان الى الامام جنبا الى جنب فبديا وكأنهما يجران ظليهما المضحكين غير متساويي الطول الى اعلى التل بينما تجرجر الظلان خلفهما ببطء على الاعشاب الطويلة دون ان يثنيا ورقة منها ٠

خلال بضعة ايام كانت « بعثة الدورادو » قد ذهبت الى البريه الصبور التي احتوتها كما يحتوي البحر الغواص وبعد ذلك بوقت طويل جاءت اخبار موت الحمير كلها ولم اعلم شيئا عن مصير الحيوانات الاقل قيمة · لا بد انها - مثلنا جميعا - لقيت ما تستحق · لم اتساءل · كنت في ذلك الوقت مستثارا بتصور مقابلتي الوشيكة لكورتز وعندما اقول وشيكة فانني اعنيه بشكل نسبي · كان ذلك بعد شهرين فقط من اليوم الذي تركنا فيه الجدول عندما وصلنا البقعة الخالية تحت محطة كورتز ·

كان الصعود الى اعلى النهر يشبه الرجوع الى بدايات العالم الاولى عندما عربدت الخضرة تيها على الارض وتوجت الاشجار الكبيرة ملكات · جدول خال وسكون عظيم وغابة لا يمكن اختراقها · كان الهواء حارا كثيفا ثقيلا بليدا ، ولم يكن هنالك فرح في ألق الشمس · وامتدادات الممر المائي البعيدة تجري بخذلان نحو قتامة المسافات المعتمة · وعلى الضفاف الرملية الفضية كانت افراس البحروالتماسيح تتشمس جنبا الى جنب ، والمياه الآخذة بالامتداد عرضا تتدفق خلل جمع من الجزر الشجرية · يضل المرء طريقه في ذلك النهر كما في الصحراء فيناكب المخاضات الضحلة طوال النهار محاولا ايجاد منفذ الى ان يظن انه قد سحر وانقطع عن كل شيء عرفه مرة - في مكان ما - بعيدا وربما في وجود آخر وتمر لحظات يرجع فيها الماضي اليك كما يحدث احيانا عندما لا تكون لديك لحظة تبقيها لنفسك ، لكنها تمر على شكل حلم مزعج مقلق · يذكر بحيرة بين الحقائق الغامرة لهذا العالم الغريب من النبات والماء والسكون · ان سكون الحياة هذا لا يشبه الهدوء في شيء · انه سكون القوة العنيد المخيم فوق نية مبهمة ينظر اليك بحقد · لقد تعودت على ذلك فيما بعد لم ألحظه · اذ لم يكن لدي وقت فقد كان علي الاستمرار في محاولة اكتشاف المنفذ · كان علي ان اتبين علائم الضفة الضائعة بالايحاء غالبا · كنت ارقب الحجارة الغارقة واتعلم ان اصفق اسناني بشدة قبل ان يقفز قلبي خارجا ·

عندما مسست صدفة جذع شجرة قديم شيطاني خبيث كان

بامكانه انتزاع الحياة من ذلك الزورق المغلف بالمعدن واغراق الحجاج ، كان علي مراقبة علائم الشجر المميت لنقطعه ليلا تمهيدا لمسير اليوم التالي ٠ عندما يكون عليك ان تنتبه الى اشياء من هذا القبيل ، الى الحوادث السطحية فان الحقيقة ـ الحقيقة اقول لكم ـ تتلاشى بينما الحقيقة الداخلية لحسن الحظ كامنة ٠ لكنني شعرت ان كل ذلك سواء ولطالما شعرت بسكونها الغامض يرقب حيلي القردية ، كما لو أنه يرقبكم ايها الاصدقاء وانتم تؤدون عرضا على حبال البهلوان الخاصة بكم ٠ مقابل ماذا ؟ نصف كراون (١) للسقطة ٠٠٠٠ »

« حاول ان تكون مهذبا يا مارلون ٠ »

زمجر صوت فعرفت ان هناك مستمعا واحدا مستيقظا غيري على الاقل ٠

« معذرة فلقد نسيت ألم قلبي الذي يشكل ما تبقى من الثمن ٠ وما الذي ينفعه الثمن حين تكون اللعبة محكمة ؟ تحكم ألاعيبك جيدا ٠ لم يكن سيئا ان تدبرت امر الحفاظ على الزورق من الغرق في رحلتي الاولى لكن ذلك كان محيرا بالنسبة لي ٠ تخيلوا رجلا معصوب العينين توكل اليه قيادة قاطرة في طريق سيء ٠ لقد عرقت وارتعشت بسبب هذا العمل فأن يكشط بحار قعر شيء يفترض ان يحافظ عليه طافيا على الدوام خطيئة لا تغتفر ٠ ربما لا يعلم بأمر ذلك احد ولكن احدا لا ينسى ابهامه ـ هه ؟ ضربة في صميم القلب ، تتذكرها ، تحلم بها ، تستيقظ ليلا وتفكر بها ـ ربما بعد سنوات ـ وتشعر بالحرارة والبرودة تلف جسمك ٠ انني لا ادعي القول ان ذلك الزورق ظل سابحا على الدوام ٠ فلقد خوضت في الماء الضحل اكثر من مرة لمدد قصيرة حيث كان عشرون من المتوحشين يتحلقون ليدفعوها ناثرين الرذاذ في الجوار ٠ وقد سجلنا بعض هؤلاء في قائمة البحارة ٠ اناس رائعون متوحشون ـ في مكانهم ٠ كانوا رجالا يمكن العمل معهم وانني لاشكرهم فهم لم يأكلوا بعضهم بعضا امامي ٠ اذ كانوا قد احضروا معهم مؤونة

---

(١) الكرْوان : نوع من العملة ٠

من لحم فرس البحر ما لبث ان تعفن جاعلا غموض البرية ينتهي هو الآخر في خياشيمي ، وان في امكاني استنشاقه الآن .

كان معي ، على ظهر الزورق ، المدير وثلاثة او اربعة من الحجاج جاهزين بعصيهم . كنا نمر احيانا بمحطة قريبة من الضفة متصلة بضواحي المجهول ، وكان الرجال البيض يهرعون من كوخ محطم ويومئون بغربة عظيم ودهشة وترحاب . وقد بدا ذلك غريبا كما لو انهم مأسورون هناك بفعل سحر ما . ودوت كلمة « عاج » في الهواء لفترة ، لكننا مضينا ثانية نحو الصمت مع النهايات الفارغة وحول المنحنيات الساكنة وبين الجدران العالية لطريقنا المتعرج ترجع ضربات العجلة الرتيبة قعقعة خاوية . اشجار واشجار ، ملايين الاشجار ، كثيفة ضخمة تشق عنان السماء . وعند اقدامها زحف الزورق الصغير المتسخ محاذيا الضفة والجدول كخنفساء بليدة تزحف فوق ارضية رواق شامخ . ان هذا يجعلك تشعر بالصغار ، بالضياع ، لكن ذلك الشعور بكليته لم يكن مقبضا ، فالخنفساء المقيتة تزحف رغم الصغار وهذا عين ما تريدها انت ان تفعله ، اما الى اين تخيلها الحجاج زاحفة فلا أدري . نحو مكان يتوقعون ان يحصلوا منه على شيء حتما . اما بالنسبة لي فقد كانت تزحف نحو كورتز - بشكل خاص . ولكن عندما بدأت انابيب البخار بالسيلان بدأنا الزحف بطيئا . كانت النهايات تنفتح امامنا وتغلق خلفنا كما لو ان الغابة قد جفت .

توغلنا عميقا عميقا الى قلب الظلام حيث السكون الكبير ، وفي بعض الاحيان كانت دقات الطبول تصعد ليلا مع النهر خلف الستارة الشجرية حيث تبقى هناك خافتة حتى انبلاج الفجر ولم نكن لندري ان كان ما تعنيه حربا أم سلما أم صلاة . والفجر كان يبشر به حلول سكون بارد حين ينام قاطعو الاخشاب وتخبو نيرانهم وتجفلك فرقعة غصن . كنا تائهي ما قبل التاريخ في ارض لبست لبوس كوكب مجهول وكان باستطاعتنا تخيل انفسنا كأوائل الرجال نستولي على ارث ملعون لقهره فوق شواطىء الالم العميق والكد المنهك . ولكن فجأة وبينما نحن نكافح للدوران مع احد المنحنيات لمحنا جدارا من جذور واسطح عشبية مدببة . وانفجرت صرخات

واندفعت اطراف الرجال سوداء واصطفقت مئات الاكـف وداست الارض مئات الاقدام وتمايلت اجساد ودارت أعـين تحت اوراق الشجر الثقيلة المتهدلة بسكون ٠ سار الزورق بصعوبة وبطء على حافة جنون أسود لا يدرك ٠ كان الرجل البدائي يسيرنا ، يصلي لنا أم يحيينا من يدري ؟ كنا ابعد من ان نستوعب ما يحيط بنا ، فانسللنا كالاشباح ذاهلين نرتعد سرا كالعقلاء امام انفجار صاخب في بيت للجنون ٠ لم يكن باستطاعتنا ان نفهم لاننا كنا بعيدين ولم يكن باستطاعتنا ان نتذكر لاننا كنا نسافر في ليل العصور الاولى ، تلك العصور التي ولدت دون ان تترك علامة او ذكريات ٠

بدت الارض غير الارض ٠ ان من عادتنا النظر الى شـكل صلصالي لوحش مهزوم ولكن هناك ترى الشيء وحشيا وطليقا ٠ لم يكن ذلك ارضيا ٠ والرجال ٠٠٠ كلا ، لم يكونوا غير انسانيين ٠ حسنا ، كان ذلك هو الاسوأ ، ذلك الشك بعدم كونهم غير انسانيين ٠ انه يأتينا ببطء ٠

زمجر الرجال وقفزوا وداروا حول انفسهم وأبدوا وجوها مرعبة ٠ لكن المرعب حقا كان فكرة انسانيتهم ٠٠٠ كأنسانيتنا ، فكرة صلتنا البعيدة بهذا الصخب الوحشي الممتلىء عاطفة ٠ بشع ٠ نعم كان بشعا جدا ، ولكن لو كان لدينا ما يكفـي من الرجولة لاعترفنا لانفسنا ان فينا اثرا ضئيلا من الاستجابة للصراحة المرعبة لهذا الضجيج ٠ شك خافت بوجود معنى فيه يمكنكم انتم ـ انتم البعيدون عن ليل العصور الاولى ان تستوعبوه ٠ ولم لا ؟ ذلـك العقل البشري ، انه لقادر على كل شيء لان فيه كل شيء ، كل الماضي وكل المستقبل وماذا بعد كان هناك ؟ فرح ، خوف ، عبادة ، شجاعة ، غضب من يدري ؟ سوى الحقيقة ٠٠ الحقيقة مجردة من رداء الزمن ٠ دع الحمقى يفغرون افواههم ويرتعشون فالرجل يعرف وان باستطاعته الترقب دون ان تطرف له عين ، ولكن يجب ان يكون لديه من الرجولة ما لأولئك الذين فوق الشاطىء على الاقل ٠ يجب ان يواجه تلك الحقيقة بقدراته الخاصة الحقيقية ٠ بقوته الخاصة التي لم تولد بعد ٠ لن تنفع المبادىء ولا المكتسبات ولا الملابس او الخرق الجميلة ٠٠٠ الخرق التي تنتزع عند اول هزة

حقيقية ٠ كلا ، انك بحاجة الى ايمان مدروس ، الى دعوة في تلك المعركة الوحشية ٠ فهل هنالك مثل هذا ؟ حسنا ، انني أستمع وأعترف ، لكن لي صوتا ايضا ٠ وسواء كان مع الخير او مع الشر فصوتي هو الذي لا يمكن اسكاته ٠ والاحمق فقط هو الآمن دائما سواء بفعل الرعب أو بفعل المشاعر الطيبة ٠

من ذاك الذي يخور ؟ ربما تتساءلون لِم لم أنزل الى الشاطىء لأشارك في الرقص والصراخ ٠ حسنا ، انني لم أفعل ٠ تقولون احساس رقيق ؟ احساس رقيق أن تشنق ! لم يكن لدي وقت ٠ كان علي ان أتدبر صنع لفائف من الرصاص الابيض وقطع الاغطية الصوفية لأساعد في ايقاف سيلان أنابيب البخار تلك ٠ كان علي أن أراقب عملية القيادة وان اتخلص من تلك الجذور المعيقة وان استمر في السير بذلك الشيء الصفيحي (١) بطريقة أو بأخرى ٠ كان هنالك من الحقيقة في تلك الاشياء ما يكفي لانقاذ رجل حكيم٠ وبين وقت وآخر كان علي الاعتناء بالمتوحش الذي كان وقادنا ، كان نوعية محسنة باستطاعته أن يملأ مرجلا عموديا بالوقود ٠ كان هناك الى الاسفل مني واقسم ان النظر اليه كان في روعة النظر الى كلب استعراض يلبس سروالا وقبعة من الريش يسير على قدميه الخلفيتين ٠ لقد اثمر تدريب بضعة شهور في ذلك الشخص الرائع حقا ٠ كان يحدق باداة عيار البخار والماء بمحاولة واضحة للتجاسر ٠ ذلك الشيطان المسكين بأسنانه الرتيبة ورأسه الصوفي المقصوص اشكالا غريبة وتلك الندوب التزيينية على كل من خديه ٠ كان من المفروض ان يكون هناك على ضفة النهر يصفق بيديه ويضرب الارض برجليه بدل ان يكون في خضم هذا العمل المضني عبدا لضرب غريب من السحر مليء بالمعرفة المتطورة ٠

كان مفيدا بالنسبة لنا لانه تعلم ، تعلم انه اذا انتهى الماء من ذلك الشيء الشفاف فان الارواح الشريرة داخل ذلك المرجل ستثور من خلال ظمئها العظيم وتنتقم انتقاما رهيبا ٠ لذا ، فقد كان يعرق ويزود بالوقود ويراقب الزجاج برعب (بسحر ارتجالي

---

(١) يقصد الزورق ٠

مكـون من بعض الخرق المربـوطة الى ذراعه وقطعـة من العظم الملمع بحجم ساعة اليد يغرسها منبسطة داخل شفته السفلى) بينما تنساب الضفاف الشجرية من حولنا ببطء تاركة الضـجة الخافتة وراءنا ، اميال من الصمت الذي لا ينتهي ٠ وزحفنا نحو كورتز ٠ لكن الجذور المعترضة كانت كثيفة والماء خادعا ضحلا ، وبدا المرجل وكأن فيه شيطانا مشؤوما بالفعل ، وهكذا لم يكن لدي او لدى ذلك الوقاد وقت للنظر الى أفكارنا الزاحفة ٠

على بعد حوالي خمسين ميلا الى اسفل المحطة الداخلية ، مررنا بكوخ من القصب وسارية حزينة منكسة طارت عنها المزق التي لا تكاد تعرف مما كان يوما علما ، وكومة اخشاب كدست بعناية ٠ كان ذلك شيئا غير متوقع ٠ نزلنا الى الضفة وعلى كومة الحطب وجدنا قطعة مسطحة من لوح عليها اثر باهت لكتابة بقلم الرصاص ٠ وعند الانتهاء من فك رموزها كانت : « خشب لكم ، اسرعوا ٠ اقتربوا بحذر » وكان هنالك توقيع لكنه لم يكن مقروءا – ليس كورتز – لقد كان كلمة اطول بكثير ٠ اسرعوا ٠ الى اين ؟ الى اعلى النهر ؟ « اقتربوا بحذر ٠) لم نكن قد فعلنا ذلك ٠ ولكن لا يمكن ان يكون المعني هو ذلك المكان الذي يأتي بالضرورة بعد عملية الاقتراب ٠

كان ثمة شيء خاطىء هناك في اعلى النهر٠ ولكن ما هو وما مقداره ؟ ذلك هو السؤال ٠ تعارضت تعليقاتنا حول غباء اسلوب البرقيات ذاك ، ولم توح لنا الشجيرات المحيطة بنا بشيء بـل انها حالت دون رؤيتنا لما هو ابعد ٠ كانت ستارة ممزقة مصنوعة من نسيج مضلع احمر تتدلى من باب الكوخ بحزن امام انظارنا ٠ وكان المسكن خاليا من كل شيء ولكن كان باستطاعتنا استنتاج ان رجلا ابيض كان قد عاش هناك منذ زمن غير بعيد ، فقد كانت هناك طاولة بدائية : لـوح من الخشب فـوق عمودين وكومة من الفضلات وضعت بعناية في زاوية مظلمة ٠ ومن عند الباب التقطت كتابا سقط غلافه اما صفحاته فقد دعكت حتى اصبحت عـلى درجة كبيرة من اللين القذر ٠ الا ان مؤخرته كانت مخاطة حديثـا بشكل جميل بخيط قطني ابيض بدا نظيفا حتى تلك اللحظة ٠

كانت تلك لقية غريبة ٠ وقد حمل الكتاب عنوان « بحث حول بعض نقاط الملاحة) لمؤلفه تاوسر أوتاوسون او شيء من هذا القبيل ... قبطان في بحرية صاحب الجلالة ٠ بدت مادة الكتاب كئيبة جافة تحوي بعض الرسوم التوضيحية وجداول بأرقام ٠ كان تاريخ الكتاب يرجع الى ستين سنة خلت ٠ امسكت بتلك التحفة الاثرية العجيبة بما امكنني من الرقة لئلا تذوب في يدي وفي الداخل كان تاوسر اوتاوسون يدرس بحماس المدى الاقصى لشد السلاسل والبكرات فوق السفينة وقضايا مشابهة ٠ لم يكن كتابا رائعا ولكن كانت فردانية الهدف وذلك الاهتمام السامي بطريقة العمل هو ما يلاحظ عند النظرة الاولى وهذا ما جعل من تلك الصفحات التي وضعت منذ ذلك الزمن البعيد شيئا واضحا نيرا ٠ لقد جعلني ذلك البحار القديم البسيط بحديثه عن السلاسل والمشتريات انسى الغابة والحجاج في غمرة احساس لذيذ بعثوري على شيء لا شك في حقيقته ٠ كان وجود مثل هذا الكتاب شيئا عظيما ، الا ان الملاحظات التي كتبت بالقلم الرصاص على الهامش والتي كانت تشير بوضوح الى النص كانت اعظم وادعى للذهول ٠ لم اكن لأصدق عيني فقد كانت مكتوبة بالشيفرة نعم لقد بدت كذلك ٠ تصوروا رجلا يحمل معه كتابا بهذا الشكل الى تلك البقعة المجهولة ليدرسه - بل ليدون ملاحظات عليه وبالشيفرة ايضا كانت تلك اقصى درجات الغموض ٠

كنت لبعض الوقت على ادراك غامض بضجة مزعجة وعندما رفعت عيني كانت كومة الخشب قد اختفت وكان المدير ومن حوله جميع الحجاج يصرخون علي منجانب النهر ٠ ادخلت الكتاب في جيبي وأؤكد لكم ان انتزاعي من القراءة كان اشبه بانتزاعي من حمى صداقة قديمة متينة ٠

شغلت المحرك الواهن الى الامام ٠

- « لا بد انه ذلك التاجر التعس ٠٠ ذلك المتطفل ٠ »

قال المدير وهو ينظر بحقد الى الخلف حيث المكان الذي تركناه٠

« لا بد انه انكليزي » فتمتم المدير بغموض :

« ان هذا لن ينقذه من المتاعب ان لم يكن حذرا ٠ »

ولاحظت ببراءة عفوية ان لا احد في مأمن من المتاعب في هذا العالم ٠

اصبح التيار اسرع الآن وبدا الزورق وكأنه في الرمق الاخير واخذت العجلة المتيبسة تتخبط بوهن ووضعت نفسي في حالة اصغاء لضربة الزورق التالية ففي كل لحظة كنت اتوقع ان يتوقف ذلك الشيء التعس ، وكان ذلك يشبه ترقب آخر مظاهر الحياة ٠ لكننا مضينا زاحفين ، وفي بعض الاحيان كان اختياري يقع على شجرة الى الامام مناقليلا لأحسب بها تقدمنا نحو كورتز ، لكنني كنت افتقدها قبل ان نتقدم فالنظر باستمرار الى شيء واحد كان اكثر من ان تحتمله طاقة البشر ٠ وقد ابدى المدير استسلاما رائعا اما انا فقد ثرت واستشطت غضبا واخذت اجادل نفسي حول امكانية تحدثي بانفتاح مع كورتز ام لا٠ ولكن قبل ان اصل الى اية نتيجة خطر لي ان حديثي او صمتي او اي عمل آخر اقوم به ما هو الا عبث مطبق ، فما الذي تعنيه معرفة شخص لشيء ما او جهله به ؟ وماذا يهم من امر كون المدير هذا الشخص او ذاك ؟ ان المرء ليمتلك احيانا ومضا من قوة البصيرة ٠ اما الجوهري في هذا الامر فكان هناك عميقا تحت السطح بعيدا عن متناول يدي وبعيدا عن فعالية تدخلي ٠

عند مساء اليوم التالي قلنا اننا على بعد حوالي ثمانية اميال من محطة كورتز ٠ وكنت ارغب في مواصلة السير لكن المدير الذي بدا منهكا اخبرني ان الابحار الى هناك من الخطورة بحيث ان من الافضل ، والشمس قد قاربت على المغيب ، ان ننتظر حيث نحن حتى صباح اليوم التالي ٠ كما اشار الى انه في حالة وضع الانذار بالاقتراب بحذر موضع التنفيذ فان من الواجب الاقتراب في وضح النهار لا في الغسق ولا في الظلام وكان في ذلك الكفاية من التعقل ٠ لقد كانت ثمانية اميال تعني بالنسبة لنا ابحار ثلاث ساعات ٠ وكنت ارى في الوقت نفسه تموجات مريبة في الطرف العلوي من امتداد النهر ٠ ومع ذلك فقد كان انزعاجي بسبب التأخير لا يوصف وقد كان هذا غريبا اذ ما قيمة تأخير ليلة بعد كل تلك الاشهر العديدة ٠

كان لدينا الكثير من الخشب وكنـا اوصينا بالحذر فاوقفت الزورق في منتصف المجرى المائي • كان امتداد النهر ضيقا ومستقيما له حواف عالية مثل ممر السكك الحديدية المقطوع من الصخر •

حل الغسق قبل مغيب الشمس بوقت طويل وانطلق التيار بسرعة هادئة وراق سكون ابكم فوق الضفاف • الشجر الحي الذي مسحت المتسلقات والشجيرات الصغيرة اذيالها به قد تحول الـى حجر حتى اصغر غصن واخف ورقه منه • لم يكن ذاك نوما كـان شيئا غير عادي كأنه الغيبوبة • لم نسمع اي صوت وكان احـدنا ينظر بحيرة ثم يبدأ في الارتياب بكونه اصم ثم جاء الليل فجـأة فأغشى على ابصارنا ايضا •

عند الساعة الثالثة صباحا قفزت سمكة كبيرة من الماء وعند عودتها ايقظني الصوت فقفزت كما لو أن مدفعا اطلق بجانبي • وعندما اشرقت الشمس كان ضباب ابيض دافىء ندي قـد حل فحجب عنا الرؤية اكثر مما فعل الليل • لم يتحرك ولم ينقشـع بل ظل يحيط بنا كما لو كان شيئا صلبا • وفي الساعة الثامنه او التاسعة ارتفع كما ترتفع مصاريع النوافذ فرأينا الاشجار الكثيرة والدغل الكبير الكثيف تحلق فوقها كرة الشمس الملتهبة في حالـة سكون تام • ثم اسدلت المصاريع البيضاء مرة اخرى برفق كما لو أنها انزلقت في أخاديد مشحمة فأمرت بارخاء السلسلة مرة اخـرى بعد ان كنا رفعناها • وقبل ان تتوقف عن الجريان محدثة خشخشة مكتومة حوم في الهواء الكثيف صراخ هائل كأنه صراخ خذلان مطلق• ثم توقف فملأت اسماعنا جلبة شاكية تذبذبت كنشاز وحشي ، واحسست بشعري يتحرك تحت قبعتي بفعل المفاجأة الكاملة • ولا ادري كيف كان وقع ذلك على الاخرين • اما انا فبدا لي وكأن الضباب نفسه هو الذي صرخ • هكذا فجأة ومن جميع الاتجاهات في الوقت نفسه صعد الصراخ المخزون الصاخب وانتهى انفجارا سريعا لزعيق هائل لا يحتمل ، توقف بعد قليل تاركا ايانا جميعا متيبسين فـي اوضاع مختلفة نستمع بعناء الى السكون المذهل الذي لا يقل ترويعا•

« يا الهي ما الذي يعنيه ••••• »

تمتم بجانب كوعي حاج مائل الى السمنة له شعر ذهبي وشوارب حمراء كان يرتدي حذاءا بلوالب جانبية وبيجاما وردية ادخلت ارجلها تحت جواربه · ووقف اثنان اخران فاغري الافواه لدقيقة كاملة ثم هرعا الى القمرة الصغيرة ليعودا مرة ثانية ويقفان وهما يرسلان بريقا مقدسا من عيونهما وبنادق الونشستر في ايديهما في وضع التأهب ·

كان الزورق الذي نركبه هو كل ما نرى بحوافه التي غشيها الضباب كما لو انه على حافة التفسخ يحيط به شريط ضبابي من الماء يبلغ عرضه حوالي القدمين - كان ذلك كل شيء اما باقي العالم فلم يكن موجودا بالنسبة لآذاننا وأعيننا · لم يكن موجودا فحسب · ذهب ، اختفى ، امحى دون ان يترك وراءه همسة او ظلا ·

تقدمت وامرت بسحب السلسلة قليلا كي نستعد لرفع المرساة والسير بالزورق فورا ان كان ذلك ضروريا ·

- « هل سيهاجمون ؟ »

همس صوت مروع ، فتمتم الاخر :

- « سنذبح جميعا في هذا الضباب · »

ارتعشت الوجوه بالانفعال وانتفضت الايدي قليلا ونسيت العيون اطرافتها · كان من الغريب ان ترى تناقض تعابير الرجال البيض والرفاق السود من بحارتنا ممن لم يكونوا اقل غربة منا في هذا الجزء من النهر رغم ان اوطانهم لم تكن تبعد اكثر من ثمانمئة ميل · كان لدى البيض الذين لم يتمالكوا انفسهم تلك النظرة الغريبة لكونهم مصدومين بشكل مؤلم بفعل ذلك الضجيج الصاخب· وكان الاخرون متيقظين ، وهو التعبير الطبيعي الا ان وجوههم كانت هادئة اساسا ، حتى اولئك الاثنين او الثلاثه الذين كانوا يكشرون عن اسنانهم اثناء سحب السلسلة · وتبادل الكثيرون جملا قصيرة مبهمة بدت وكأنها تساعدهم على تهدئة انفسهم · اقترب مني رئيسهم وهو شاب اسود عريض الصدر متلفع بقطع من القماش الازرق الفاقع المهدب الحواف له خياشيم وحشية اما شعره فقد سرحت ضفائره المزينة الى الاعلى بطريقة فنية · قلت :

ـ « اهـــا » ٠

ولم اقصد شيئا اذ كان ذلك لمجرد واجب الزمالة فأجاب بحدة بعينيه الدمويتين المتسعتين والتماعة اسنانه الحادة :

« امسكهم ، امسكهم واعطهم لنا » ٠

« لكم ؟ وماذا ستفعلون بهم ؟ »

ـ « نـأكلهـم » ٠

اجاب باقتضاب وهو يتكىء بكوعه الى الحاجز ثم نظر الـى الضباب وهو في حالة من التأمل العميق ٠ ولو لم يخطر ببالي انـه ورفاقه جائعون حقا لاصابني الرعب بالفعل اذ لا بد انهم كانوا في جوع مضطرد على مر هذا الشهر على الاقل ٠

كانوا بدأوا العمل معنا منذ ستة أشهر (ولا أعتقد أن ايا منهم كانت له فكرة واضحـة عـن الزمن مثلنا نحن الذين نبعـد عنهم دهورا عديدة ٠ كانوا لا يزالون ينتمون الى بدايات الزمـان ولم تكن لديهم خبرة موروثة لنعلمهم حسبها) وبالطبع فطالما كانت هناك قطعة من الورق مكتوب عليها حسب قانون مضحك تم وضعه هناك في اسفل النهر فان احدا لن يتعب نفسه بالتفكير بكيفية عيشهم ٠ نعم كانوا قد احضروا معهم شيئا من لحم فرس البحـر التالف الذي لم يكن ليبقى طويلا على اي حال ٠ حتى لو لم يلـق الحجاج بكميات كبيرة منه علـى ظهر الزورق وسط تلـك الجلبة المذهلة ٠ لقد بدا ذلك اجراءا استبداديا لكنه كان في الواقـع حالة دفاع مشروع عن النفس اذ ليس بامكان احد ان يحيا مع رائحـة فرس البحر الميت يستنشقها يقظا نائما اكلا وان يبقى على قيد حياة غير مستقرة في الوقت نفسه ٠ اضافة الى انهم كانوا يعطونهم كل اسبوع ثلاث قطع من الاسلاك النحاسية يبلغ طول كل منها تسعة انشأت وكان الهدف من ذلك ان يشتروا امنهم بتلك العملة في القرى القريبة من النهر وقد طبقت تلك الطريقة بنجاح ٠ فاما الا تكون هناك أي قرى أو أن يكون سكانها معادين واما ان يرفض المدير الذي كان يأكل المعلبات مثلنا ان يوقف الزورق بسبب مبهم بشكل او باخر ٠ وهكذا فهم لو لم يبتلعوا الاسلاك نفسها او يصنعوا منها اناشط لصيد الاسماك فلست ادري كيف كانت رواتبهم الكبيرة

ستكفيهم . ويتحتم علي القول هنا انها كانت تدفع لهم بانتظام جدير بشركة تجارية محترمة . اما بالنسبة للاخرين فقد كانت بعض كتل من مادة عجينية نصف مطبوخة ذات لون ارجواني متسخ كانوا يحتفظون بها ملفوفة بأوراق الاشجار هي كل ما يأكلونه - رغم انها لم تكن صالحة للاكل بأي حال . كانوا يبتلعون منها قطعة صغيرة جدا فبدت العملية وكأن ما كان مقصودا بها هو النظر اكثر منها محاولة تهدف الى تغذية مجديه . ولا ادري لماذا لم يدفعهم كل هذا الجوع القاتل الى الهجوم علينا والتهام طعامنا ولو مرة واحدة فقد كانوا ثلاثين وكنا خمسة وان ذلك ليدهشني كلما فكرت به الان . كانوا ضخاما اشداء ولا قدرة كبيرة لديهم على تقدير الامور. شجعان واقوياء رغم ان بشرتهم لم تعد لامعة ولا عادت عضلاتهم صلبة وجدت ان شيئا كابحا كان يفعل فعله لديهم في احد تلك الاسرار الانسانية التي تحبط الاحتمالات . نظرت اليهم باهتمام خاطف متسارع ولم يكن ذلك لانه خطر لي ان بامكانهم التهامي بسرعة رغم انني ادركت عندها على ضوء تقدير جديد - كم بدا الحجاج سقاما. وتمنيت نعم تمنيت بالفعل - الا اكون - ماذا عساي اقول ؟ الا اكون - طعاما غير شهي . لمحة غزو خيالية تواءمت مع احاسيس الحلم التي تخللت ايامي تلك . بل لربما كنت مصابا بحمى خفيفه ايضا فالمرء لا يستطيع العيش جاسا نبضه على الدوام وكثيرا ما كنت تعرضت لحمى خفيفة او اعراض اشياء اخرى الضربات اللعوب لمخلب البريه - العبث الاولي الذي يسبق الانقضاض الفعلي الذي حدث كنتيجة . نعم نظرت اليهم كما كنتم ستفعلون تجاه اي مخلوق بشري الى غرابة اندفاعاتهم وحوافزهم ومقدراتهم وضعفهم عندما كانوا يتعرضون لاختبار حاجة جسدية متعذرة . الكبح وأي كبح ممكن ؟ أكانت تلك خرافة ، اشمئزاز ، صبر ، خوف أم كان ذلك نوعا من الشرف البدائي ؟ لا خوف يمكنه ان يغلب الجوع ولا صبر يمكن ان يبليه والاشمئزاز ... لا وجود له مع الجوع اما الخرافة والمعتقدات وكل ما يمكن تسميته بالمبادئ فليس اكثر من قشة في مهب الريح . الا تعرفون شيطانية الجوع الكامن ؟ عذابه المثير للسخط ؟ افكاره السوداء ووحشيته القائمة الجاثمة ؟ حسنا انا اعرفه . انه يقتضيك ان تسخر كل قواك للتغلب على الجوع . ان من السهل مواجهة الحرمان والخيانة وعذاب

الروح اذا ما قورن بذاك الجوع المزمن ·ذلك مؤلم لكنه حقيقي ·
واولئك الرفاق ايضا لم يكن لديهم اي سبب يذكر للتردد الكبح !
من الاقرب ان تتوقع ان يكبح نفسه ، ضبع يجوس بين جثث ملقاة
فيميدان معركة بحثا عن فريسه · لكن حقيقة كانت تواجهني ،
حقيقة تبهر النظر لدى رؤيتها · كالزبد في اعماق البحر ، كسراب
لغز مبهم · غموض – عندما فكرت به – اكبر من الغرابة · ملحوظ
حزن يائس عصية على التفسير وسط ذلك الصخب الوحشي الذي
خلفناه على ضفاف النهر وراء بياض الضباب المعمى ·

كان اثنان من الحجاج يتشاجران بهمس سريع حول اي
الضفتين ·

– « اليسرى »

« كلا ، كيف يمكنك ؟ اليمنى · اليمنى بالطبع » ·

« انه لامر خطير ··· »

جاءني صوت المدير من الخلف ··· « سأشعر بالخذلان لو حدث
شيء للسيد كورتز قبل أن نصل » ·

نظرت اليه ولم يكن لدي ادنى شك حول حديثه · كان من النوع
الذي يتمنى ان يكون باستطاعته الحفاظ على ملامحه · هكذا
كان كبحه · ولكنه عندما تمتم بشيء عن الذهاب بسرعة لم اكلف
نفسي عناء اجابته · كان كلانا يعرف ان ذلك مستحيل · ولو اننا
ارضينا قبضاتنا عن التحكم بقاع الزورق لاصبحنا في الهواء ···
فيالفراغ · لم يكن بامكاننا معرفة اتجاهنا – الى اعلى النهر ام
الى اسفله ام بعرضه الى ان يلقي بنا الى هذه الضفة او تلك ،
وعندها لن نعرف في البداية اية ضفة هي · لم اتحرك بالطبع اذا لم
تكن لدي نية في التسبب بالتحطيم وقد لا تتخيلون اي مكان مميت
لتحطم سفينة كان ذاك · وسواء غرقنا على الفور ام لا فقد كنا
سنهلك سريعا بطريقة او بأخرى ·

وقال المدير بعد فترة صمت قصيرة ·

– « انني اعطيك سلطة اتخاذ جميع المخاطر » ·

فأجبت باختصار :

- « انني ارفض اتخاذ اي منها » ٠
وكان هذا هو الجواب الذي توقعه مع احتمال ان تكون لهجته قد فاجأته فقال بتهذيب واضح :
- « حسنا ٠ انني انزل عند رغبتك فأنت الربان » ٠

ادرت له ظهري معبرا عن اعجابي بذلك ونظرت الى الضباب كم من الزمن سيستمر ؟ كان ذلك هو الحذر اليائس بعينه وذلك الرحيل نحو هذا الكورتز الباحث عن العاج بين الشجيرات التعسة قد احدقت به الاخطار كما لو كان اميرة مسحورة تقيم في قصر خرافي ٠

« اتعتقد انهم سيهاجمون ؟ »
سأل المدير بلهجة واثقة ٠
كان رأيي انهم لن يهاجموا لاسباب عديدة واضحة احدها الضباب الكثيف وكانوا سيتوهون حتما لو انهم حاولوا التوجه الينا من الضفاف بقواربهم وكنا سنواجه المصير نفسه عند اول محاولة منا للتحرك ٠ لكنني تأكدت ايضا من استحالة اختراق الغابة ٠ كانت العيون هناك ايضا ٠ عيون شاهدتنا وعرفتنا اما الاشجار المحيطة بالنهر فكانت كثيفة جدا الا ان ما خلفها من شجيرات اقل نموا كانت قابلة للاختراق وعلى اي حال فانني لم ار خلال فترة انقشاع الضباب القصيرة اي قارب مع انني نظرت في كل الاتجاهات عدا أمام السفينة بالطبع ٠ الا ان طبيعة الضجة هي التي جعلت من فكرة الهجوم احتمالا بعيدا ٠ طبيعة الصرخات التي كنا سمعناها ٠ فهي لم تكن تحمل طابع الوحشية التي تنذر بقصد عدائي فوري ٠ كانت طبيعة غير متوقعة ، وحشية وعنيفة ، ولكل هذا فقد انتابني شعور جامح بالاسى ، لقد ملأ منظر الزورق اولئك المتوحشين حزنا لا يمكن السيطرة عليه ٠ وأشرت الى أن أي خطر سيكون بالضرورة راجعا الى اقترابنا من نوع من العاطفة الانسانية المطلقة ٠ وحتى الحزن الاقصى يمكن أن يتجسد في ضرب من العنف ولكنه على الاغلب يأخذ شكل اللامبالاة ٠

كم اود لو انكم رأيتم الحجاج وهم يحملقون ٠ لم تكن لديهم الحمية للسخرية مني او لشتمي ٠ لكنني اعتقد انهم ظنوا انني

جننت ـ من الخـوف ربما ـ فبـدأت بالقاء محاضرة مكرورة : يـا ابنائي الاعزاء لم يكن القلق ليفيدنا ٠ ان نبقى حذرين ؟ حسنا اذن لقد راقبت علائم انقشاع الضباب كما يراقب القط فأرا ، فأعيننا لم تعد صالحه لشيء بأكثر ممن دفنت عيناه على عمـق اميال عديدة في كومة من القطن٠ هكذا كان الشعـور أيضا ٠٠٠ بالاختناق والحرارة والكبت ٠ وكان كل ما قلته مطابقا للواقع بشكل مطلق رغم انه بدا مبالغا به بعض الشيء ٠ فلم يكن ما رأينـاه هجوما غير محاولة للصبر ٠ كان عملا ابعد عن ان يكون عدوانيا ، ولم يكن دفاعيا بالمعنى المفهوم ، لقد تم اتخاذه بدافع اليأس وكان في جوهره عملا وقائيا ٠

يمكنني القول أن الامر تطور بعد ساعتين من انقشاع الضباب وكانت ذروته عند نقطة تبعد ما يقارب ميلا ونصف اسفل محطة كورتز ٠ كنا قد بدأنا تعثرنا وتخبطنا في احدى المنعطفات عندما رأيت جزيرة صغيره في تلة صغيرة يلتمع عشبها الاخضر الزاهي في وسط النهر ٠ لم نكن قد رأينا شبيها لذلك ، ولكن ما أن شققنا طريقنا حتى شعرت أن ذلك لم يكن غير رأس للضفة الرملية أو بداية سلسلة من البقع المضحلة الممتده الى منتصف النهر ٠ لم يكن لها لون معين ٠ كانت مجرد جزء من اليابسة غسلته ميـاه النهر ، أما الشيء كله فكان يبدو تحت الماء كعمود فقري لرجل يمتد تحت الجلد في منتصف الظهر ٠ ورأيت أن باستطاعتي الذهاب يمين هذا الشيء او يساره ، لم ادر من اي الممرين بالطبع فقـد بدت الضفاف متشابهة جدا لكنني ابلغت ان المحطة كانت على الجانب الغربي فتوجهت نحوه بالطبع ٠

وما أن دخلنا الممر حتى ادركت انه كان اضيق مما افترضت بكثير ، فالى يسارنا كانت المخاضة الطويلة المتصلة والى اليمين كانت الضفة المرتفعة بانحناء تكتسي بالحشائش الكثيفة ، فوق الحشائش انتصبت الاشجـار ملتـزة متفاوتـة الطـول وقد تدلت الاغصان فوق المجرى بكثافة ، وبين ان واخر كـان هيكل شجرة ضخمة يبرز صلبا فوق الجدول ٠ كان كـل شيء اذن جيـدا بعيد الظهر ٠ كان وجه الغابة قاتما وسقط شريط عريض مـن الظل فوق

الماء ، وداخل ذلك الظل باتجاه الشاطىء وبواسطة عمود سبر الغور علمت أن الماء القريب من الضفه هو الاعمق .

كان احد اصدقائي الجائعين الصابرين يسبر غور المياه في الانحناءات تحتي مباشرة . كان ذلك الزورق اشبه ما يكون بصندل (١) مسقوف وعلى سطحه كان هنالك بيتان صغيران من خشب الساج (٢) بنوافذهما وابوابهما ، أما المرجل فكان في نهاية المقدمة وكان المحرك في المؤخرة ، وفوق هذا كله كان هنالك سقف خفيف قائم على بعض المساند وقد برزت المدخنة من خلاله ، وامام تلك المدخنة كانت هنالك قمرة صغيرة مصنوعة من ألواح الخشب الخفيفة هي حجرة قائد الدفة . كانت تحتوي على اريكة وكرسيين خفيفين وبندقية « مارتيني » محشوة في احد الزوايا وطاولة صغيرة وعجلة القيادة . كان لها باب واسع في المقدمة وأباجورات عريضة عند كل طرف ، كلها مفتوحة على الدوام بالطبع . وكنت أقضي معظم نهاري فوق حافة المقدمة من ذلك السقف امام الباب . وفي الليل كنت انام - أو أحاول النوم - فوق الاريكة . وكان احد السود ، رياضي البنية ينتمي لاحدى القبائل الساحلية تعلم على يدي سلفي المسكين ، هو الذي يدير الدفة . كان يضع في اذنيه زوجا من الحلق النحاسي وقد لف حول جسده من الخصر حتى الكاحل أزارا من القماش الازرق ظانا انه يمتلك العالم . لم أر في حياتي من هو اكثر حمقا منه ، ولم يكن لخيلائه مثيل وهو يدير الدفة ، عندما يكون احد في الجوار . أما ان لم ير أحدا فانه يتحول على الفور الى ضحية لجنين شائن ، وبلحظة واحدة يفلت زمام ذلك الزورق المنهك من يده .

كنت انظر الى عمود سبر الغور وشعرت بالقلق عندما اكتشفت أن جزءا منه يبرز قليلا مع كل محاولة . ورأيت الرجل الذي كان يمسك بالعمود يترك العمل فجأة ويتمدد بطوله على ظهر السفينة دون ان يكلف نفسه عناء سحب العمود رغم انه ظل ممسكا به

---

(١) الصندل : نوع من القوارب المسطحه ينقل به الحصى والرمل .
(٢) الساج : نوع من الخشب الصلب .

فبقي متدليا في الماء • وفي الوقت نفسه جلس الوقاد الذي كنت أراه تحتي بشكل فجائي أمام فرنه محنيا رأسه فتولتني الدهشة• كان علي عندها أن أنظر الى سرعة النهر العظيمة فقد كان هناك جذع شجرة يعيق الملاحة في الجزء السالك من النهر • كانت عصي صغيرة تتطاير من حولنا بغزارة تئز امام أنفي وتسقط تحتي وترتطم خلفي بغرفة قائد الدفة • وخلال ذلك كله كان النهر والشاطىء والغابات ساكنة تماما الا من صوت انفلاش الماء تحت ضربات عجلة المؤخرة وأشياء من هذا القبيل • أزحنا جذع الشجرة من طريقنا كيفما اتفق والسهام ! يا الهي ، كنا عرضة لها • ودخلت بسرعة لأقفل المصاريع المطلة على اليابسة ، وذلك الاحمق مدير الدفة الذي كان يمسك العجلة بيديه رافعا ركبتيه عاليا ضاربا الارض بقدميه محركا شفتيه كحصان ملجوم ، اللعنة عليه • كنا نترنح على بعد عشرة أقدام من الضفة وكان علي أن أنحني خارجا كي أستطيع اغلاق المصراع الثقيل ، فرأيت وجها بين الاغصان محاذيا لوجهي ينظر الي بوحشية وثبات ، وفجأة وكما لو أن غلالة أزيلت عن عيني رأيت في عمق القتامة المتشابكة صدورا عارية وأذرعا وأرجلا وأعينا لامعة • كانت الشجيرات تغص بالاطراف الآدمية المتحركة الملتمعة بلونها البرونزي • اهتزت الاغصان وتمايلت وأصدرت حفيفا وانطلقت السهام من بينها ثم أغلق المصراع • قلت لمدير الدفة :

- « ضعها في اتجاه مستقيم • »

تصلب رأسه ونظر بوجهه الى الامام لكن عينيه ظلتا تدوران واستمر برفع قدميه وانزالهما برفق وازبد فمه قليلا •

- « ابق هادئا • »

صحت به بغضب وكان بودي لو استطعت أن آمر الاشجار ألا تهتز بفعل الريح • خرجت كالسهم وتحتي مباشرة كانت جلبة أقدام مهتاجة فوق السطح الحديدي وأسئلة مضطربة وصرخ صوت :

- « أيمكنك الرجوع ؟ »

ولمحت موجة على شكل حرف « V » أمامنا • ماذا ؟ عائق آخر !

وانفجر تحت قدمي وابل من الطلقات · كان الحجاج قد فتحوا نيران بنادق الونتشستر نحو الشجيرات وصعد جحيم من الدخان الكثيف الى الاعلى ما لبث أن سار الى الامام ببطء فشتمته اذ لم يعد باستطاعتي رؤية العائق او الشجرة الملقاة · وقفت بالباب أحدق النظر ، وأسراب السهام تتجه نحوي · ربما كانت تلك سهاما مسمومة ، لكنها بدت وكأنها أعجز من أن تقتل قطا · وضجت الغابة بالصراخ ، لقد اطلق قاطعو الاخشاب ما يشبه صرخات الحرب · وأصمني صوت بندقية انطلق من خلفي ، ونظرت من فوق كتفي ، كانت حجرة قائد الدفة ما تزال تعج بالضجيج والدخان عندما هرعت الى العجلة · كان الزنجي الاحمق قد ترك كل شيء ليفتح المصراع ويطلق بالبندقية المارتيني · وقف امام الفجوة الواسعة فصرخت به ان يعود بينما كنت أقوّم اعوجاج اتجاه الزورق · لم يكن أمامي مجال للدوران حتى لو أردت ذلك ، وكان جذع الشجرة المعيق في مكان قريب امام ذلك الدخان اللعين · لم يكن هناك وقت أضيعه لذا فقد شققت طريقي باتجاه الضفة مباشرة حيث كنت اعلم ان المياه عميقة ·

شققنا طريقنا ببطء بمحاذاة الشجيرات المدلاة لفائفا من الاغصان المتكسرة والاوراق المتطايرة · توقف سيل الطلقات في الاسفل عندما فرغت مواسير البنادق كما كنت توقعت · ورددت رأسي الى الخلف من طلقة التمعت وعبرت حجرة مدير الدفة محدثة ثقبا في المصراع عند الدخول وآخر عند الخروج وفيما انا انظر الى مدير الدفة المجنون الذي كان يهز بندقيته الفارغة ويصرخ باتجاه الشاطىء رأيت ظلال رجال يركضون منحنين ويقفزون يبينون وتختفي اجزاء منهم ثم يختفون كلية · ولاح خيال ضخم في الفراغ امام المصراع وسقطت البندقية على ارض الزورق وخطا الرجل متراجعا بسرعة وناظرا الي من فوق كتفه نظرة غريبة عميقة مألوفة ثم سقط عند قدمي وارتطمت حافة رأسه بالدفة مرتين وتطوح شيء بدا كقصبة طويلة ثم سقط بقوة فوق مقعد صغير · وبدا كما لو أنه قد فقد توازنه وهو يحاول انتزاع ذلك الشيء من شخص على الشاطىء ·

تبدد الدخان الخفيف بعيدا فبدا العائق واضحا لنا · ونظرت

الى الامام فتبينت أنه سيكون باستطاعتي حرف الزورق بعيداً عن الضفة بعدما يقرب من مئة ياردة ، لكنني شعرت بدفء شديد وبلل في قدمي مما اضطرني للنظر الى الاسفل . كان الرجل قد تدحرج على ظهره وحملق فيّ مباشرة فيما كانت يداه تمسكان بالقصبة بقوة . كانت تلك قصبة رمح اما انها أطلقت أو رميت من خلال الفتحة فأصابته في خاصرته تحت الاضلاع مباشرة فغاص النصل في لحمه محدثا فجوة مخيفة . امتلأ حذائي . كانت بركة من الدماء راكدة تلتمع بلون احمر قان تحت الدفة ، وقد التمعت عيناه ببريق مدهش . وانفجر وابل الطلقات مرة ثانية فنظر الي بأسى وهو يمسك بالحربة كما لو أنها شيء ثمين ، وبدا وكأنه يخشى أن أحاول انتزاعها منه . وبذلت جهدا لتخليص عيني من نظراته المحملقة والانتباه للقيادة . وتحسست احدى يدي طريقها نحو الصفارة البخارية فوق رأسي ، وأطلقت صفرات سريعة متقطعة فخمد الصخب وصرخات الحرب على الفور ثم انطلق من اعماق الغابة نواح متواصل مرتعش نمّ عن ذعر قاتل ويأس مطبق بدا وكأنه يتبع آخر أمل منطلق من الارض . كانت هنالك فوضى عظيمة بين الاشجار ، وتوقف سيل النبال وجلجلت بضع طلقات ثم تلا ذلك صمت سمعت خلاله ضربات الدفة الخلفية بوضوح وبدأت أوجه الدفة الصلبة الى اليمين في اللحظة التي لاح فيها بالباب الحاج الذي كان يلبس البيجاما الوردية مهتاجا .

ـ « لقد أرسلني المدير » .

بدأ القول بلهجة رسمية ثم توقف برهة :

ـ « يا الهي » .

قال وهو يحدق بالجريح . وقفنا نحن الاثنين فوقه فشملتنا نظرته اللامعة المتسائلة . وقلت انها تعني أنه سوف يطرح علينا سؤالا بلغة لا تفهم . لكنه مات دون ان ينبس ببنت شفة ، دون أن يقوم بحركة ، دون أن ترتعش عضلة فيه الا في اللحظة الاخيرة حين عبس فيما يشبه الرد على اشارة لم نرها او همسة لم نسمعها ، عبوسا أضفى على قناع الموت الاسود على وجهه تعبيرا مهددا كئيبا قاتما لا يدرك . واستحال بريق النظرة المتسائلة المنطفيء الى خواء زجاجي :

- « اتعرف القيادة ؟ »

سألت الرجل بشغف ، فبدا متشككا فأطبقت على ذراعه ليفهم على الفور انني اردته ان يوجه الدفة سواء كان يعرف القيادة أم لا . لقد كنت في الواقع تواقا الى تغيير حذائي وجواربي .

- « انه ميت . »

تمتم الرجل بوضوح .

- « لا شك في ذلك » .

قلت وأنا أشد رباط الحذاء بشدة كالمجنون « وبالمناسبة ، أعتقد ان السيد كورتز ميت ايضا الآن » .

كانت تلك هي الفكرة المسيطرة في تلك اللحظة وكان هناك احساس بالخيبة الكبرى ، كما لو انني اكتشفت انني كنت اكافح عن شيء بلا جوهر . لم اكن لأشعر بقرف اكثر من ذاك لو انني كنت قد قطعت كل تلك المسافة في سبيل هدف واحد هو التحدث الى السيد كورتز ، التحدث الى ... ورميت باحدى فردتي حذائي على ارض الزورق وأيقنت عند ذلك ان ذاك بالضبط هو ما كنت اسعى اليه .. التحدث الى السيد كورتز . واكتشفت شيئا غريبا هو أنني لم أتخيله يفعل شيئا ، بل لم أتخيله يتحدث . لم أقل لنفسي « لن أراه بعد الآن » أو «لن أصافحه بعد الآن » بل قلت « لن أستمع اليه بعد الآن » فقد قدّم الرجل نفسه كصوت . وهذا لا يعني بالطبع انه لم يرتبط لدي بعمل ما . ألم يجر اخباري بكل لهجات الحسد والاعجاب انه قد جمع وقايض واحتال وسرق من العاج اكثر مما فعل الموظفون مجتمعين ؟ لم تكن تلك هي المشكلة . كانت المشكلة في كونه موهوبا وان من بين كل مواهبه كانت الموهبة الوحيدة البارزة التي حملت معها احساسا بالحضور الحقيقي هي مقدرته على الحديث - كلماته - موهبة التعبير . ذلك السيل من الضوء . المحير المنور المجد المتذبذب المثير للازدراء ، أو ذلك الدفق الخادع الآتي من قلب الظلمة الصلد .

القيت بفردة الحذاء الثانية الى شيطان ذلك النهر . لقد اعتقدت أن كل شيء قد انتهى . فات الأوان - اختفى واختفت الموهبة بفعل حربة أو سهم أو هراوة . ولن أستمع الى ذلك الشخص

وهو يتحدث بعد ذلك كله – واكتسى حزني بفيض عاطفي مذهل كذلك الذي رأيته في ذلك الحزن المعربد لاولئك المتوحشين بين الاشجار ، ولم أكن لأشعر بالعزلة القاتلة بأكثر من ذلك لو انني جردت من معتقد لي او فقدت قدر حياتي ٠٠٠ لماذا تزفرون بهذه الطريقة الوحشية ٠٠٠ أحدكم ؟ سخف ؟ حسن ، هذا سخف ٠ يا الهي ! لا يجب على المرء ٠٠٠ أعطني قليلا من التبغ ٠٠٠ »

كانت هنالك وقفة سكون عميق ، ثم اشتعل عود ثقاب فظهر وجه مارلو النحيل منهكا اجوف بتجاعيده الطولية وجفونه المثقلة تعلوه سيماء اهتمام مركز ٠ وبينما كان يسحب أنفاسا قوية من غليونه بدا وجهه وكأنه يأتي ويذهب داخل الليل بالتموجات المنتظمة للهب الخفيض وانطفأ عود الثقاب ٠

« سخف » ٠

صرخ مارلو ٠

« ان هذا اسوأ ما يتعرض له من يحاول الحديث ٠ ها أنتم جميعا هنا ٠ كل منكم مرتبط بحديثين جيدين ، كسفينة ثقيلة بمرسيين ٠ جزار في احدى الزوايا وشرطي في زاوية اخرى ، شهية ممتازة ودرجة حرارة عادية ٠٠٠ أتسمعون ؟ عادية من نهاية السنة الى نهاية السنة وتقولون سخف ٠ ليكن سخفا ٠٠٠ يا للسفه ٠٠٠ سخف أيها الابناء الاعزاء ٠ ما الذي تتوقعونه من رجل ألقى بحذائه من على ظهر الزورق بفعل العصبية المجردة ٠ زوج من الاحذية الجديدة ٠ انني أفكر بذلك الآن ٠ من المحير أنني لم أذرف الدمع وأنا فخور بجلدي ٠ وقطعت كل ذلك فكرة افتقادي لذلك الامتياز الذي لا يقدر وهو الاصغاء الى حديث كورتز الموهوب٠ كنت مخطئا بالطبع فقد كان ذلك الامتياز بانتظاري ٠ نعم ، لقد سمعت اكثر مما يجب ٠ وكنت على حق ايضا ٠ صوت ٠ كان اكثر من صوت بقليل ٠ وقد سمعته ٠٠٠ هو ٠٠٠ ذلك الصوت ٠٠٠ واصوات اخرى ٠ وكلهم كانوا اكثر من اصوات بكثير وذكرى ذلك الزمن تحوم حولي دون ان استطيع ادراكها كارتجافة ميتة لاحدى التمتمات الهائلة ، سخيفة ، عدوانية ، قذرة ووحشية أو ببساطة دنيئة ، مجردة من أي احساس ٠ أصوات ، أصوات ، حتى الفتاة نفسها ٠٠٠ الآن ٠٠٠ »

وصمت طويـلا ٠

« لقد ألقيت شبح مواهبه مع الكذب أخيرا » ٠

بدأ فجأة من جديد ٠

« فتاة ماذا ؟ هل قلت فتاة ؟ انها خارج ذلك كلية ٠ انهن خارج ذلك كله يجب أن يكنّ خارجه ٠ يجب ان نساعدهن على البقاء في ذلك العالم الجميل الخاص بهن ، لئلا يصبح عالمنا أسوأ ٠ آه ، لقد كان عليها أن تكون خارجه ٠ وكان عليكم أن تسمعوا جثة السيد كورتز الخارجة من قبرها تقول « **خطيبتي** » اذن لشعرتم عندها كم كانت خارج ذلك كله وعظم جبهة كورتز الشامخ ٠ يقال ان الشعر يستمر في النمو احيانا لكن تلك ٠٠٠ النوعية ٠ لقد كانت خالية من الشعر بشكل مرعب ٠ لقد وسمت البرية جبهته فأصبحت كالكرة ٠ كرة عاجية ٠ لقد دفعته فذوى ، اخذته واحبته وعانقته وسرت في عروقه واستهلكت لحمه وتملكت روحـه بواسطة طقوس تلقين شيطاني غامضة ٠ كان حبيبها ومدللها ٠ العاج ؟ اعتقد ذلك ٠ اكوام منه ، اكداس ٠ ضاق به الكوخ الطيني العتيق حتى لكأنه لم يبق ناب واحد على وجه الارض او تحتها في البلاد ٠

« ٠٠٠ معظمه متحجر » ٠

قال المدير باستخفاف ٠ ولم يكن متحجرا بقدر ما لم اكن انا كذلك ٠ ولكنهم يصفونه بذلك عند استخراجه ٠ يبدو ان اولئك الزنوج يدفنون الانياب احيانا ولكن كان من الواضح انهم لم يستطيعوا دفن تلك الحزمة على عمق كاف لانقاذ السيد الموهوب كورتز من قدره ٠

ملأنا به الزورق واضطررنا لتكويم الكثير منه فوق السطح ، وهكذا كان باستطاعته ان يرى ويبتهج بقدر ما يرى لان تقدير تلك النعمة استمر معه الى النهاية ٠ كان عليكم ان تسمعوه يقول « عاجي » نعم لقد سمعته يقول « **خطيبتي** ، عاجي ، محطتي ، نهري ٠٠٠ ي » كان كل شيء ملكه ٠ وقد جعلني ذلك احبس انفاسي في انتظار سماع انفجار البرية بضحكة هائلة تدوي فتهز النجوم الثابتة في سماواتها ٠ كل شيء كان لـه ٠ لكن ذلك كان سخفا ٠ كانت المسألة هي ان يعرف الى اي شيء كان ينتمي وكم

من قوى الظلام تنازعته اليها ٠ كان ذلك هـو الانعكاس الذي روعكم ، كان من المستحيل – ولم يكن من المفيد ايضا – ان يحاول احد التخيل ٠ لقد اتخذ مكانا مرموقا بين شياطين الارض – وانني لأعني ذلك حرفيا ٠ ليس بامكانكم ان تفهموا ٠ وكيف لكم ذلك ؟ وتحت اقدامكم ارض صلبة ويحيط بكمجيران لطفاء على استعداد لان يحيوكم او يهاجموكم ٠ تخطون برفق بين الجزار وبين الشرطي في الرعب المقدس للفضيحة والمشنقة والاستسلام المجنـون ٠٠٠ كيف لكم ان تتخيلوا الى اي (منطقة خاصة) من العصور الاولـى يمكن لانسان ان تقوده قدماه الطليقتان من خلال الوحدة ٠٠ الوحدة المطلقة ٠٠ دون شرطي ، من خلال الصمت ، الصمت المطلق حيث لا صوت جار لطيف ينطلق محذرا هامسا بذكر الرأي العام ؟ هذه الاشياء الصغيرة هي التي تصنع الفروق الكبيرة وعندما يجب عليك ان تعود الى قواك الفطرية الخاصة ، الى مقدرتك الخاصة علـى الاخلاص ٠ وبالطبع يمكن ان تكون احمق بما فيه الكفاية لتضل الطريق او غبيا لدرجة لا تعرف معها ان قوى الظلام تهاجمك ٠ واقول لكم لم يساوم مغفل الشيطان على روحه ابدا ٠ ففي الاحمق الكثير من الحمق وفي الشيطان الكثير من الشيطان ولا فرق ٠ وربما تكون مخلوقا تسبح بحمدك السماوات فتعميك وتصمك تلك النذر والاصوات السماوية عن سواها فتتجرد الارض بالنسبة لك الا عن كونها مكانا للوقوف ، ولا داعي عندها معرفة ما اذا كانت تلـك خسارة ام مكسبا لكن غالبيتنا ليست هنـا او هناك ٠ فالارض بالنسبة لنا هي مكان للعيش ، حيث علينا ان نقبل بالنذر والاصوات والروائح ايضا ٠ نستنشق لحم فرس البحـر الميت ولا نصاب بالتسمم فهناك – كما ترون – تأتي القوة والايمان بالمقدرة على حفر فجوات للتواضع لتدفن الاشياء فيها ، وقوة التكريس لا من اجل النفس بل من اجل عمل غامض يكسر الظهـر – وهذا شيء صعب ٠ انني لا احاول التبرير او التفسير ، انني احاول ان افسر السيد كورتز لنفسي ٠٠ ظل السيد كورتز ٠٠ ذلك الطيف الطقسي

الاتي من الماوراء • اكرمني بثقته العجيبة قبل ان ينتهي الى عدم • كل ذلك لانه استطاع التحدث معي باللغة الانكليزية • كان كورتز قد انهى جزءا من تعليمه في انكلترا وكما عبر هو بنفسه ، كانت تعاطفاته في المكان المناسب ، اذ كانت امه نصف انكليزية وكان ابوه نصف فرنسي • لقد اسهمت اوروبا كلها في صنع كورتز • وبالتدريج علمت ان الجمعية الدولية لانهاء الاعراف المتوحشة عهدت اليه باعداد تقرير لقيادتها في المستقبل وقام باعداده بالفعل وقد رأيته ، قرأته ، وكان بيانا بليغا • ينطق بالبلاغة ولكنه كان مشحونا بالتوتر كما اعتقد • سبع عشرة صفحة من الكتابة بخطوط متلاصقة وجد الوقت ليكتبها وبدا ان ذلك كان قبل - لنقل - قبل ان تتلف اعصابه لينظم بعد ذلك رقصات معينة في منتصف الليل تنتهي بطقوس **لا تحكي** • كانت - كما استنتجت كارها مما سمعت مرارا مختلفة - تقدم اليه • اتفهمون ؟ للسيد كورتز نفسه • لكنها كانت قطعة كتابية جميلة • وقد صعقتني الفقرة الاولى في ضوء ما علمت فيما بعد - بنذرها المشؤومة • فقد انطلق في جداله من اننا نحن البيض انطلاقا من نقطة التطور التي وصلناها « يجب ان نظهر لهم (المتوحشون) في صورة كائنات خارقة للطبيعة • يجب ان نأخذهم بالقوة كالالهة » وغير ذلك « وبالممارسة البسيطة لعزيمتنا يمكننا ان نخلق قوة خيرة لا تقهر الخ •• من تلك النقطة بدأ التحليق واخذني معه • كان الخطاب رائعا رغم ان من الصعب تذكره ، وقد اشعرني ذلك بعظمة وهمية تحكمها نزعة خيرة مهيبة جعلتني انتشي حماسة • كانت تلك قوة البلاغة التي لا تقهر - قوة الكلمات - الكلمات النبيلة المتهبة• ولم تكن هنالك اشارات تقطع ذلك الدفق السحري من الجمل سوى ملاحظة في اسفل الصفحة الاخيرة بدا واضحا ان يدا متسرعة خطتها على عجل فيما بعد يمكن اعتبارها شرحا لطريقة • كانت بسيطة جدا • وفي نهاية ذلك النداء المؤثر لكل المشاعر الغيرية بدت متوهجة تثير وترعب كومضة برق في سماء صافية « أبيد واكل المتوحشين » كانت الغرابة في كونه قد نسي كل شيء عن ذلك التذييل كما يبدو • فقد توسل الي فيما بعد ، عندما عاد الى نفسه ، ان اولي عناية فائقة لـ « كتيبي » كما كان يدعوه • فقد

كان واثقا من تأثيره الجيد على حياته العملية في المستقبل ، وقد حصلت على معلومات كاملة عن هذه الاشياء جميعا ، وفضلا عن هذا كان علي ايلاء العناية لذكراه بعد انتهائي منه ، ولقد قمت بما فيه الكفاية في هذا المجال مما يعطيني حقا لا جدال فيه لان القيه في صندوق قمامة التقدم بين كل النفايات بين كل قطط الحضارة الميتة ان رأيت ذلك ٠ ولكن عندها لن يكون لي الخيار ٠ فهو لن ينسى وكائنا ما كان فهو ليس بالرجل العادي ٠ كانت لديه القوة لان يفتن او يرعب الارواح البدائية برقصات سحرية مفزعة تقام تكريما له ، وكان بامكانه ايضا ان يملأ ارواح الحجاج الصغيرة بالشكوك المريرة ٠ كان له صديق مخلص واحد على الاقل وكان قد قهر روحا واحدة في العالم الذي لم يكن بدائيا ولا منوثا بالبحث عن الذات ٠ كلا لا يمكنني نسيانه رغم انني لست مؤهلا لاثبات ما اذا كان ذلك الشخص يستحق الحياة التي فقدناها بالوصول اليه ٠ لقد افتقدت قائد الدفة كثيرا ٠ افتقدته حتى عندما كانت جثته لا تزال ملقاة في حجرة قائد الدفة ٠ ربما تعتقدون ان ذلك الاسى على متوحش لم يساو اكثر من ذرة رمل في صحراء سوداء ـ كان غريبا ٠ حسنا ، الا ترون انه قد فعل شيئا ٠ لقد ادار الدفة وساعدني لعدة اشهر ٠ كان عونا لي ـ اداة ـ ٠ كان هنالك نوع من المشاركة ، هو يدير لي الدفة وانا علي ان اعتني به وكانت تقلقني نواقصه ٠ هكذا نشأ بيننا عهد ادركته عندما تحطم فجأة وما زال العمق الحميمي للنظرة التي القاها علي ، عندما تلقى طعنته ، في ذاكرتي حتى اليوم كتعبير عن صلة بعيدة اثبتت في لحظة سامية ٠

الاحمق المسكين لو كان قد ترك ذلك المصراع وشأنه لم يكن عليه زمام ـ لا زمام ـ تماما مثل كورتز ٠ شجرة تحنيها الرياح ٠ حالما انتعلت خفين جافين سحبته خارجا بعد ان قمت بانتزاع الحربة من خاصرته بصعوبة ، واعترف انني قمت بهذه العملية وانا مغمض العينين ٠ ارتفع كعباه قليلا عندما اجتزنا عتبة الباب بينما كان كتفاه يلتصقان بصدري ، كنت احضنه من الخلف بيأس٠ لقد كان ثقيلا ، ثقيلا ، اثقل من أي رجل اخر على وجه الارض كما اتصور ٠ وبدون ادنى ضجة قلبته من على ظهر الزورق فيخطفه التيار كحزمة من العشب ورأيت الجثة تنقلب مرتين قبل ان تختفي

عن ناظري الى الابد ٠ كان المدير وكل الحجاج عندها مجتمعين في الجزء الطليل من الارضية حول حجرة قائد الدفة يثرثرون مع بعضهم بعضا كسرب من الغربان المثارة ، وكان قد روعني همس حول حزمي الفاسي ولا ادري لم كانوا يريدون ابقاء تلك الجثة معلقة في الجوار ٠ ربما لتحنيطها ٠ لكنني كنت قد سمعت شيئا اخر ايضا ٠ وسمعت كذلك تمتمة منذرة بالشؤم في الطابق الاسفل٠ اما اصدقائي من قاطعي الاخشاب فقد روعوا كذلك لسبب اكثر وضوحا ، مع انني اعترف بأن السبب نفسه لم يكن مقبولا ٠ نعم ، كنت قد قررت انه اذا كان له ان يؤكل فسيكون من نصيب الاسماك وحدها ٠ كان قائد دفة من الدرجة الثانية في حياته لكنه الان ميت ٠ وكان من الممكن ان يصبح مرغوبا فيه بدرجة كبيرة او ان يتسبب في مشاكل مروعة ٠ كما انني كنت اخشى ان اضطر لاخذ الدفة لان الرجل ذا البيجاما الوردية ظهر كشخص اخرق ميئوسا منه في ذلك العمل ٠

فعلت كل هذا بعد الانتهاء من الجنازة البسيطة مباشرة ٠ كنا نسير بسرعة متوسطة في منتصف المجرى حيث استمعت الى الحديث عني ٠ كانوا يئسوا من كورتز ومن المحطة ٠ مات كورتز واحترقت المحطة ٠٠٠ والخ ٠٠ الخ ٠ بدا الحاج ذو الشعر الاحمر مقتنعا بأن كورتز المسكين قد نال ما يستحقه من عقاب على الاقل ٠

« ـ اقول ، كان يجب ان نفتك بهم هناك بين الاشجار ، هه ؟ ماذا تقولون ؟ » ٠

قال ذلك المتسول الاحمر المتعطش للدماء ، مع انه اوشك ان يغمى عليه عندما رأى الجريح ٠ ولم اتمالك نفسي عن القول :

« لقد اطلقت الكثير من الدخان على كل حال » ٠

كنت قد لاحظت من خلال خشخشة رؤوس الاشجار وتطايرها ان كل تلك الطلقات قد ذهبت عالية ٠ ولا يمكنك ان تصيب شيئا ما لم تهدف ثم تطلق النار من فوق الكتف ، لكن اولئك الرفاق كانوا يطلقون النار من الاسفل واعينهم معمضة ٠ اما الانحدار فقد

اكدت ـ وكنت على حق ـ ان سببه كان صوت الصفارة البخارية . ومن اجل هذا نسوا كورتز وبـــدأوا يضجـون بالاحتجاج الغاضب ضــدي .

وقف المدير بجانب الدفة يتمتم بثقة حول ضرورة العودة الى اسفل النهر قبل ان يحل الظلام عندما رأيت عن بعد ارضا خالية على ضفة النهر وهيكل بناية ما وسألت :

« مـــا هـــذا ؟ » .

فصفق بيديه دهشا ثم صرخ :

« انها المحطة » . وتقدمت شيئا فشيئا بالسرعة المتـوسطة نفسها ومن خلال منظاري رأيت منحدر احدى التلال تكسوه اشجار غريبة وقد خلا تماما من اي شيء تحتها وعلى القمة كانت هنالـك بناية مهجورة غطت الاعشاب الطويلة نصفها وقد بدت الفجوات الكبيرة في السطح المائل نحو الاعلى فتحات سوداء بعيدة .

وقد بدت في خلفيتها الاحراش والغابات . لم يكن هنـــاك حاجز او حد من اي نوع كان ولكن كان هنالك شيء من هذا القبيل اذ بقيت بجانب المنزل ستة اعمدة دقيقة في صف شبه منتظم وقد زينت رؤوسها بكرات محفورة . اما السياج او اي شيء مثله كان هناك فقد اختفى . وحول ذلك كله كانت الغابة . كانت ضفة النهر خالية . وعلى الشاطىء رأيت رجلا يلبس قبعة كبيرة يشير بعناد بجماع يده . وبنظرة فاحصة على طرفي الغابة الاعلى والاسفل ادركت ان هنالك حركة ـ كانت بعض الاشباح الآدمية تتحـــرك هناك . سرت بالزورق الى الامام بحذر ثم اوقفت المحرك وتركـت الزورق سائرا وحده وبدأ الرجل الواقف على الشاطىء يصرخ طالبا منــا الـــرسو .

« لقـد هوجمنـــا » .

صاح المديـــر . فصرخ الاخر بمرح :

« اعرف . اعرف .. تقدموا . كلّ شيء على ما يرام . انني سعيـــد » .

ذكرتني تلك الهيئة بشيء كنت قد رأيته ••• شيء مضحك كنت قد رأيته في مكان ما • وبينما كنت احاول المسير الى الامام كنت اسأل نفسي « ترى ماذا يشبه هذا الشخص ؟ » وفجأة عرفت انه يشبه المهرج بملابسه المصنوعة من مادة ربما كانت كتانا هولنديا بني اللون الا انها كانت مليئة بالرقع الزرقاء والحمراء والصفراء ، في الامام وفي الخلف وعلى الكوع والركبتين • كانت الالوان تغلف معطفه وكان اللون القرمزي يذيل سرواله من الاسفل الا ان اشعة الشمس جعلته يبدو مشرقا وانيقا بشكل رائع فقد كانت الرقع مصنوعة بشكل فائق الجمال • كان وجهه الفتي حليقا وسيما خاليا من الملامح بأنفه المقشور وعينيه الزرقاوين الصغيرتين • وكان الابتسام يعقب العبوس على محياه كما يعقب النور الظل على سهل اجتاحته الريح •

« انتبه ايها الربان ، لقد كان هنالك عائق عندك الليلة الماضية » •

صرخ قائلا :

« ـ ماذا ، عائق اخر ؟ » •

واعترف لكم بأنني بدأت اشتم بشكل مخجل فقد كدت اثقب زورقي المحطم منهيا تلك الرحلة الرائعة • ادار المهرج الواقف على الشاطىء انفه الاقنى الي قائلا وقد علا الابتسام وجهه :

« ـ انت انجليزي ؟ » •

وصرخت وانا على الدفة :

« ـ وهل انت انجليزي ؟ » •

اختفى الابتسام وهز رأسه كما لو كان آسفا لخيبة أملي ثم علاه البشر من جديد فقال مشجعا :

« ـ لا عليك • هل جئنا في الوقت المناسب ؟ » •

« ـ انه هناك » •

أجاب بايماءة من رأسه نحو التل وفجأة علته الكآبة • كان وجهه كشمس الخريف تظلم لحظة ثم تشرق في اللحظة التالية •

بعد ان ذهب المدير يرافقه الحجاج المسلحون حتى الاسنان الى المنزل صعد الشاب الى ظهر الزورق :

« ـ اقول لك ان ذلك لا يعجبني ، فأولئك السكان لا يزالون بين الاشجـــار » ٠

فأكد لي باصرار ان كل شيء على ما يرام ٠

« انهم اناس بسطاء » ثم اضاف « حسنا ، انني مسرور لقدومكم ٠ لقد استغرقني ابقاؤهم بعيدا كل وقتي » ٠

وصرخـت بـــه :

« ـ لكنك قلت ان كل شيء على ما يرام » ٠

« ـ انهم لم يقصدوا ان يلحقوا بكم الاذى » ٠

وما ان بدأت الحديث مرة اخرى حتى قال مصححا خطأه :

« ـ ليس هكذا بالضبط » ثم اضاف بحيوية :

« في اعتقادي ان حجرة مدير الدفة بحاجة الى تنظيف كامل » ٠

وفي اللحظة التالية ، اخذ ينصحني بابقاء الكثير من البخار في المرجل لاطلاق الصفارة في حالة اي خطر ٠

« ان لصفرة واحدة ان تفعل اكثر مما تفعله كل بنادقكم ٠ انهم اناس بسطاء » ٠

ثم اخذ يثرثر بشكل اربكني وبدا وكأنه يحاول ان يقود الى فترات سكون ٠وقد حدث ان لمح ضاحكا الى ان هذا هو ما كـان يرمـــي اليـــه ٠

« ـ الا تتحـدث مع السيد كورتز ؟ » ٠

فأجاب بعبـارات حادة :

« ان احدا لا يتحدث مع ذلك الرجل ـ انهم يستمعون اليه ٠ امـا الان » ٠

« ولوح بذراعه وبلمح البصر اصبح في حالة من الكآبة المريعة٠ ثم وبلحظة ثانية عاد مرةاخرى قافزا واخـــذ يعبث بيديـه وبدأ يهزهما بينما كان يهذر ٠

« اخي البحار ٠٠ الشرف ٠٠ المتعة ٠٠ السرور ٠٠٠ اقدم نفسي ٠٠٠ روسي ابن كبير كهنة ٠٠٠ حكومة تامبوف ٠٠٠ ماذا ؟ تبغ ، تبغ انجليزي ، التبغ الانجليزي الرائع الان ٠ ان ذلـــك لأخوي ٠ ادخن ؟ واين هو ذلك البحار الذي لا يدخن ؟ » ٠

اعجبه الغليون كثيرا وشيئا فشيئا عرفت انه قد هرب من المدرسة وانه عمل بحارا على سفينة روسية ثم هرب ثانية ، وعمل لمدة قصيرة على سفينة انجليزية وانه تصالح مع كبير الكهنة حيث استفاد من ذلك ٠

« ولكن عندما يكون الانسان شابا يجب عليه ان يرى الاشياء ويجمع الخبرات والافكار وان يوسع مداركه » ٠

« ـ هنـــا » ٠٠

قاطعتـــه قائـــلا :

« ـ من المستحيل ان تعلم ٠ هنا قابلت السيد كورتز » ٠

اجابني لائما رزينا غضا ٠ فلزمت الصمت ٠ كان على ما يبدو قد اقنع احد مكاتب التجارة الهولندية علـى الساحـل بأن يزوده بالمؤونة والبضائع ، وقد بدأ يجلبها الى الداخل مبتهجا كالطفـل دون ان تكون لديه ادنى فكرة عما يمكن ان يحدث له ٠ وتجول بناحية ذلك النهر لمدة سنتين وحيدا منقطعا عن الناس والاشياء ٠

« ـ انني لست صغيرا الى الدرجة التي ابدو بها ٠ انني في الخامسة والعشرين » « في البداية قال لي العجوز فان شويتين ان اذهب الى الشيطان لكنني بقيت ملازما له وتكلمت حتـى اضطر مكرها على الموافقة ٠ لذا فقد اعطاني بعض الاشياء الرخيصة وبعض المسدسات واخبرني بأنـه يرجـــو الا يراني ثانية ٠ ذلك الهولندي العجوز الطيب فان شويتين ٠ لقد ارسلت له كمية قليلة من العاج منذ عام لئلا يحسبني لصا صغيرا عندما اعود ٠ ارجو ان يكون قد تسلمها اما بالنسبة للباقي فأنا غير مكترث ٠ لقد تركت لك كومة من الخشب ٠ كان ذلك بيتي القديم هل رأيت ؟ » ٠

قال كل ذلك بسرور غامر٠ ناولته كتاب تاوسون وبدا كما لو انه سيقبلني الا انه امتنع عن ذلك :

« ـ الكتاب الوحيد الذي تركته وكنت اظن انني فقدته قال وهو ينظر اليه بوجد ٠ كثيرة هي الحوادث التي تحدث لشخص يتجول بمفرده كما تعلم ٠ تضطرب القوارب احيانا واحيانا اخـرى

يكون عليه ان يخليها عندما يغضب النـاس » وقلب صفحـات الكتـاب وسألتـه :

« - كتبت بعض الملاحظات بالروسية ؟ » فأومأ برأسه ٠ قلـت :

« ظننت ان تلك شيفرة خاصة » فضحك ثم بدا جديا مـرة اخـرى وقال :

« - انني اتعرض للكثير من المتاعب كي ابقي اولئك الناس بعيديـن » ٠

« وهل كانوا يريدون قتلك ؟ » ٠

« آه كـلا » ٠

صرخ ممسكا عن الكلام فتابعت ٠

« لمـاذا هاجمونـا ؟ » ٠

تردد قليلا ثم قال بخجل :

« - انهم لا يريدون له ان يرحل » ٠

« لا يريدون » قلت مستغربا فأومأ برأسه ايمـاءة غموض وحكمة ثـم صرخ :

« - اقول لك ان هذا الرجل قد وسع مداركي » ٠

وفتح ذراعيه علـى مداهمـا وحدق في بعينيه الزرقاويـن الصغيرتين اللتين بدتا كآلتي الاستدارة ٠

نظرت اليه تغمرني الدهشة ٠ ها هوذا امامي مرتديا ثوبـا متعدد الالوان كهارب من احدى فرق التمثيـل الايمائي ، نضرا مدهشا ٠ كان وجوده بحد ذاته مستحيلا مستعصيا علـى الفهم مبلبلا ٠ معضلة مستحيلة الحل ٠ كان نجاحه في الوصول الى تلك البقعة القصية ، واستمرار وجوده فيها امرا صعب الادراك ، فهوا لم يختف على الفور :

« - لقد ذهبت ابعد من ذلك بقليل ، ثم ابعد قليلا الى حيث لم يعد باستطاعتي ان اعرف كيف سأعود ٠ ان ذلك غير مهم فلا يزال هناك الكثير من الوقت وسأحاول تدبر الامر ، اما انت فخـذ كورتز من هنا بسرعة ٠٠٠ بسرعة اقول لك » ٠

كانت نضارة ثيابه تطغى على اسماله المتعددة الالوان وعلى

عوزه ووحدته وجوهر خذلان تيهه العبثـي • فلأشهر عديدة ، لسنوات عديدة لم تكن حياته لتساوي شروى يوم واحد ، وها هو هناك شامخ حي طائش التفكير ، وفي المدى المنظور فان تحطمه بفعل سنيه القليلة وتهوره الارعن امر مستحيل • اخذت بشيء من الاعجاب ••• شيء من الحسد • لقد دفعته النضارة الى الامام لكنها حفظته سالما وهو بالتأكيد لم يكن يريد من البرية غير مكان يتنفس فيه ويتحرك خلاله • كان مطلبه الاساسي هو ان يمارس وجوده وان يتقدم نحو اقصى حدود الخطر وبأقصى حدود الحرمان • ولئن كانت روح المغامرة الجامحة المطلقة النقاء قد سيطرت على انسان ما فان ذلك الانسان هو هذا الشاب الرث • كدت احسده على ذلك البريق الناصع المتواضع الذي بدا وكأنه استوعب تماما كل تفكير بالذات لدرجة انك تنسى ان ذلك الشخص الواقف امام ناظريك هو الذي مر بتلك الاحداث ، الا انني لم احسده على ذاك التفاني من اجل كورتز فهو لم يفكر به مليا لقد سعـى ذلك اليه فتمثله بنوع من القدرية المتلهفة • ويجب علي القول انه بدا لي ان ذلك كان اخطر الامور التي مر بها على الاطلاق •

لقد التقى الاثنان بقوة حتمية كسفينتين هدأتا سيرهما قرب بعضهما البعض ثم وقفتا متلاصقتين • واعتقد ان كورتز كـان بحاجة الى مستمعين • ففي مناسبة معينة وبينما كانوا يخيمون في الغابة تحدثا الليل بطوله ، او بشكل اصح تحدث كورتز :

« ـ لقد تحدثنا عن كل شيء » قال وقد استوعبته الذكرى كلية » لقد نسيت ان هناك شيئا اسمه النوم • كان الليل كله يبدو مقدار ساعة • عن كل شيء • كل شي ء••• وعن الحب ايضا » •

« ـ آه تحدث اليك عن الحب » •

قلت باهتمام فصرخ بانفعال :

« ـ لم يكن ذلك كما تظن • كان يتحدث بشكل عام ، لقد جعلني ارى أشياء ••• أشياء » •

رفع ذراعيه عاليا ، وكنا في ذلك الوقت فوق الزورق فحدجه رئيس قاطعي الاخشاب الذي كان يتسكع في الجوار بنظرة مـن

عينيه البارقتين • التفت حولي ، ورغم انني اجهل السبب الا انني اؤكد لكم ان هذه الارض ، هذا النهر ، هذه الادغال ، هذا القوس السماوي الملتهب لم يبد لي من قبل ابدا ، لم يبد لي بذلك الخذلان، بتلك الظلمة ، بتلك الصلادة امام العقل البشري بتلك القسوة تجاه الضعف الانساني •

« ـ ومنذ ذلك الوقت وانت معه بالطبع ؟ » •

على العكس من ذلك فقد تبين ان العلاقة بينهما قد وهنت لاسباب عديدة اذ كان قد تدبر امر الاعتناء بكورتز خلال مرضين كما اخبرني (وقد اشار الى ذلك كما لو كانت تلك مخاطرة عظيمة) ولكن القاعدة هي ان كورتز كـــان يتجول وحيدا في اعماق اعماق الغابـــة •

« ـ كثيرا ما كنت اضطر للانتظار اياما طويلة في هذه المحطة قبل ان يأتي اليها » •

« آه لقد كان هناك ما يستحق الانتظار ـ في بعض الاحيان ـ ما الذي كان يفعله ؟ يستكشف ام ماذا ؟ » سألته •

« ـ نعم بالطبـــع » •

كان قد اكتشف الكثير من القرى ، وبحيرة ايضا ••• لم يكـن يعرف بالضبط في اي اتجاه هو وكان من الخطر التساؤل كثيرا ـ ولكن بعثته كانت في الغالب من اجل العاج • واعترضت :

« ـ ولكن لم يكن لديه من البضائـــع ما يتاجر به في ذلـك الوقـــت » •

فأجـاب وهـو ينظر في البعد :

« ولكن كانت لديه كميات كبيرة من الذخيرة » •

« اي انه هاجم تلك المنطقة » قلت ذلك فأومأ برأسه •

« ولم يكن وحده بالتأكيد » •

وتمتم بشيء عن القرى المحيطة بتلك البحيرة فقلت مشجعا :

« ـ لقد استمال كورتز القبيلة للتبعة اليس كذلك ؟ » •

فتململ قليلا ثم قال :

« ـ لقد كانوا يعبدونه » •

كانت لهجة تلك الكلمات غير عادية فنظرت اليه كالباحث عن شيء ٠ كان مدهشا ان ترى فيه ذلك المزيج من الرغبة والتردد في التحدث عن كورتز ٠ لقد ملأ ذلك الرجل حياته وشغل فكره وسيطر على عاطفته ٠ انفجر قائلا :

« ـ ما الذي تتوقعه ؟ لقد اتى اليهم بالبروق والرعود ولم يكونوا قد رأوا شيئا مثل ذلك ٠٠ رهيب جدا ٠ كان يمكن ان يكون رهيبا جدا ٠ لا يمكنك ان تحكم على كورتز كما تحكم على الناس العاديين لا ٠ لا ٠ لا ٠ الان ٠٠٠ لاعطيك فكرة ، وليس لدي مانع من اخبارك انه كان يريد قتلي ايضا في احد الايام لكنني لا احكم عليه » ٠

« يقتلك ٠ صرخت ولماذا ؟ » ٠

« ـ حسنا ٠ كانت لدي كمية صغيرة من العاج ٠ كان رئيس تلك القرية القريبة من بيتي قد اعطاها لي وكنت اقامر بتلك الكمية، لقد ارادوها دون ان يأبه لاعتراضي وقال بأنه سيطلق علي النار ان لم اعطه العاج واغادر البلاد بعد ذلك ٠ لم يكن هنالك ما يمنعه من قتل من يود قتله ٠ وكانت تلك حقيقة ايضا ، فأعطيته العاج ولكنني لم اغادر البلاد ٠ كلا ٠ كلا ٠ لم يكن باستطاعتي ان اتركه ، وبالطبع كان علي ان ابقى حذرا الى ان عدنا اصدقاء من جديد لفترة اخرى ٠ في تلك الفترة اصابه المرض للمرة الثانية ٠ وبعد ذلك كان علي الابتعاد من طريقه دون ان يكون هناك ما يحول دون ذلك ٠ فقد كان يعيش معظم الوقت في تلك القرى القريبة من البحيرة ٠ احيانا كان يتحدث الي عندما يأتي الى اسفل النهر ولكن كان من الافضل لي ان الزم جانب الحذر احيانا اخرى ٠ لقد قاسى ذلك الرجل كثيرا ٠ كان يمقت كل ذلك ولكن لم يكن باستطاعته الخلاص ٠ وقد رجوته عند اول فرصة ان يحاول الرحيل قبل ان يفوت الاوان بل عرضت عليه ان ارحل معه ٠ كان يوافق ولكنه كان يبقى ليذهب بعدها في رحلة جديدة بحثا عن العاج حيث كان يختفي لاسابيع وينسى نفسه بين هؤلاء الاقوام ٠٠ ينسى نفسه » ٠

« ـ لقد جن اذن » قلت ، واحتج مغضبا فالسيد كورتز لا يمكن ان يكون مجنونا ولو كنت قد سمعته يتحدث قبل يومين لما جرؤت

على التلميح الى مثل ذلك الشيء ... كنت قد حملت منظاري المكبر بينما كان يتحدث فأخذت بالنظر نحو الشاطىء ماسحا حد الغابة عند كل طرف وكذلك خلفية المنزل . وقد اقلقتني معرفتي بأن هناك اناسا بين تلك الاشجار الساكنة الهادئة التي تشبه في سكونها وهدوئها ذلك المنزل المحطم فوق التل . لم يكن هناك على وجه البسيطة ما يشير الى تلك الحكاية العجيبة التي لم تحك كثيرا كما اوحت بذلك الي تلك الصرخات المخذولة تكملها اهتزازات الاكتاف ، بتلك الجمل المتقطعة ، بتلك التلميحات المنتهية بالتنهدات العميقة . كانت الاحراش ساكنة كالقناع ... فبدت بسيماء المعرفة الكامنة والترقب الصبور والصمت غير المدرك البادي عليها ثقيلة كأبواب سجن موصدة . كان ذلك الروسي يشرح لي ان السيد كورتز لم ينزل سوى مؤخرا الى اسفل النهر محضرا معه كل مقاتلي قبيلة البحيرة . كان قد غاب لعدة اشهر حيث كانت تقدم له طقوس العبادة كما اعتقد . نزل بعدها بشكل غير متوقع بنية بدت واضحة للجميع للقيام بغزوة اما عبر النهر او نحو اسفل المجرى . كان من الواضح ان شهوة المزيد من العاج قد تغلبت علي ... ماذا عساي ان اقول ؟ .. عن المطامح الاقل مادية !. وعلى اي حال فانه لم ينل سوى الضرر . فجأة :

« ـ لقد سمعت انه كان طريح الفراش لا يقوى على شيء فصعدت اليه ... منتهزا الفرصة » .

قال الروسي :

« ـ انه لسيء ، سيء جدا » .

قلت وانا اوجه منظاري باتجاه المنزل. لم تكن هناك دلائل حياة ، ولكن كان هنالك السطح المحطم وذلك الجدار الطيني الطويل المطل من فوق الحشائش بنوافذه الثلاث الصغيرة المربعة . كلا لقد كانتا اثنتين بنفس الحجم . بدا كل ذلك في متناول يدي . وقمت بحركة فظة فبرز احد الاعمدة المتبقية من ذلك السياج المتلاشي ضمن مجال المنظار . تذكرون انني قلت لكم ان بعض الزخارف التي تبدت عن بعد خلال محاولاتي النظر بالمنظار قد بدت واضحة في الواجهة المحطمة من المكان . والان بدا لي المنظر

فجأة اكثر قربا • فكان ان القيت برأسي الى الوراء كمن يتحاشى ضربة • ثم بدأت أجول بنظري بامعان من عمود الى اخر من خلال المنظار وعندها ادركت خطئي ، اذ لم تكن تلك المقابض زخرفة بل كانت اشارات • كانت تلك المقابض معبرة ومحيرة ، مدهشة ومزعجة • كانت غذاء للفكر وكذلك للعقبان اذا نظرت من اعالي السماء • ولكنها كانت في جميع الاحوال غذاء للنمل الذي كان يحسن تسلق الاعمدة ، ولكانت رؤوس تلك الاوتاد اكثر تأثيرا لو لم تكن مولية وجوهها صوب المنزل ، فقد كانت كلها كذلك عدا الوتد الاول الذي كان يواجه طريقي • لم اصعق كما قد تتصورون ، اذ لم يعد رد فعلي الاول ان يكون حركة اندهاش • فلقد توقعت ان ارى مقبضا خشبيا • عدت مرة اخرى الى العمود الذي شاهدته في البداية • وهناك كان ••• اسود مجففا مغروسا بجفونه المغمضة ••• رأس بدا نائما بأعلى ذلك العمود وبتينك الشفتين المنكمشتين عن صف ابيض ضيق من الاسنان بدا كالمبتسم ، كالمبتسم ابدا في حلم مضحك لا ينتهي في ذلك النوم الازلي •

انني لا اذيع اية اسرار مهنية • فقد اخبرني المدير بعد ذلك ان اساليب السيد كورتز قد دمرت المنطقة ، وليست لدي اية فكرة حول هذه النقطة لكنني اريد ان يكون واضحا لكم انه لم تكن هنالك اية مكاسب حقيقية من تلك الرؤوس المعلقة هناك • انها لتدل على انه لم يكن هنالك كابح يحول دون ارضاء شهوات السيد كورتز المختلفة • كانت هنالك رغبة جامحة بداخله ••• امر صغير يشب عن طوق بلاغته العظيمة عندما تستثار تلك الرغبة ••• ولا ادري ان كان يدري بعجزه ذاك ام لا واعتقد انه عرف الحقيقة اخيرا • اخيرا فقط • لكن البرية كانت قد وجدته خارجها في احد الاصباح فانتقمت منه انتقاما رهيبا جزاء ذلك الغزو المذهل • واظن انها قد همست له بأشياء عن نفسه لم يكن يعرفها • اشياء لم تكن لديه عنها اية فكرة قبل ان يسكن الى مشورة ذلك التوحد العظيم • وقد برهنت تلك الهمسة على سحر لا يقاوم • دوت عاليا بداخله فقد كان اجوف تماما من الداخل ••• وضعت المنظار جانبا فبدا الرأس الذي كنت قريبا منه حد التحدث اليه كمن قفز بعيدا الى مسافة مستحيلة الاجتياز •

بدا المعجب بكورتز مكتئبا قليلا • وبصوت متسرع مبهم اخذ يؤكد لي انه لم يجرؤ على اخذ تلك •• لنقل النماذج •• الى الاسفل • لم يخش الوطنيين فلم يكن من شأنهم ان يتحركوا قبل ان يقول السيد كورتز كلمته • كانت سطوته غير عادية • كانت مخيمات هؤلاء الناس محيطة بالمكان وكان الزعماء يأتون اليه كل يوم للزيارة ويزحفون ••

« لا ارغب في معرفة اي شيء عن الطقوس التي كانوا يؤدونها لدى الاقتراب من كورتز ••• » صرخت قائلا •

غريب ذلك الشعور الذي غمرني بأن مثل تلك التفاصيل ستكون اكثر ايلاما من تلك الرؤوس الجافة فوق الاوتاد تحت نوافذ السيد كورتز • فلم يكن ذاك سوى منظر وحشي بينما بدا لي وكأنني وبقفزة واحدة قد انتقلت الى منطقة مظلمة من مناطق الرعب القاسي حيث كانت الوحشية الفطرية البسيطة راحة تامة لكونها شيئا يستحق الوجود تحت الشمس • نظر الشاب الي بدهشة واعتقد انه لم تخطر له فكرة ان كورتز ليس بمعبودي • نسي انني لم استمع الى اي من تلك المونولوجات الرائعة حول ••• حول ماذا ؟ حول الحب والعدل وسير الحياة او غير ذلك • وان تحدثنا عن الزحف امام السيد كورتز فلقد زحف مثلما زحف اكثرهم وحشية على الاطلاق • قال انه لم تكن لدي فكرة عن الظروف فقد كانت تلك رؤساء المتمردين • وصدمته بضحكي • متمردون ! ترى ما التعريف التالي الذي سيكون علي ان اسمعه ؟ فقد كان هنالك الاعداء والمجرمون والعمال – وها هم المتمردون وبدت لي تلك الرؤوس مستسلمة فوق اوتادها •

« – انك لا تدري كيف ارهقت تلك الحياة رجلا كالسيد كورتز » •

صاح تلميذ كورتز الاخير :

« – حسنا وانت ؟ » ••

« – انا • انا رجل بسيط ليست لدي افكار عظيمة ولا اريد شيئا من احد ، كيف يمكنك مقارنتي بـ •••؟ » •

كانت مشاعره اكبر من ان تمكنه من الحديث وفجأة تهاوى •

« – انني لا افهم » تأوه قائلا « لقــد بذلت كل ما استطيع لابقائه حيا ، وهذا يكفي • لم تكن لي يد بذلك كله وليست لـدي المقدرة • لم تكن هناك نقطة من الدواء او لقمة من طعام ينـاسب المرضى لعدة اشهر هنا • لقد خذل بشكل مخجل • رجل مثله ، بمثل تلك الافكار • بشكل مخجل مخجل • انني ••• انني لم انم ابدا خلال الايام العشرة الماضية ••• » •

وضاع صوته في هدوء المساء • كانت الظلال الطويلة قد نزلت التل بينما كنا نتحدث • وذهبت بعيدا وراء الكـوخ المحطم وراء صف الاوتاد الرمزي • كان ذلك كله في الظل القاتم بينما كنا لا نزال في الاسفل تحت اشعة الشمس وقد التمـع امتداد النهـر المحاذي للخلاء بروعة ساكنة مبهرة • بانحناءة ضبابية قاتمة من فوقها ومن تحتها • لم تكن هناك روح حيــة واحدة ولم تصدر الشجيرات حفيفـا •

فجأة ظهرت مجموعة من الرجال يدورون حول زاويـة البيـت فبدوا وكأنهم آتون من جـوف الارض • كانـوا يخوضون بـين الحشائش التي غمرتهم حتى خصورهم متعاونين في حمل محفـة مرتجلة الصنع كانت بينهم • وفي اللحظة نفسها صعدت صرخة من عمق المنظر الخالي اخترق زعيقها الهواء الساكن كسهم حاد متجه صوب قلب الارض • وكما لو كان ذلك بقوة السحر ، تدفقت نحـو الخلاء قرب الغابة الساكنة المسودة انهار من كائنات بشرية ••• عراة يحملون في ايديهم الحـراب والاقواس والـدروع بنظـراتهم المسعورة وحركاتهم الوحشية • اهتــزت الشجيرات وتمايلــت الحشائش لفترة ثم هدأ كل شيء الى سكون حذر •

« – والان ان لم يقل لهم الحقيقة فاننا لمن الهالكين » •
قال الروسي الواقف عند مرفقي •
كان جمع الرجال الذين يحملون المحفة قد توقفوا في منتصف الطريق الى الزورق كما لو انهم تحجروا • ورأيت الرجل النائم على المحفة ينهض جالسا بهزاله وبيـده المرفوعة عاليا فوق اكتاف حامليه قلت : « لنأمل ان يجد الرجل الذي يستطيع التحدث عـن الحب اسبابا خاصة للعفو عنا هذه المرة » •

شعرت بالامتعاض من جراء الخطر العبثي المحدق بوضعنا كما لو كان وضعنا تحت رحمـة ذلك الشبح الاثيم ضرورة غير مشرفة ٠ لم اتمكن من سماع اي صوت ولكنني رأيت من خلال منظاري تلك اليد النحيلة تمتد آمرة ورأيت الفك السفلي يتحرك وعيون الطيف تلتمع في اظلامة رأسه الناتيء العظام الذي كان يهتز بتشنج غريب ٠ كورتز - كورتز - ان ذلك يعني القصير باللغة الالمانية - أليس كذلك ؟ حسنا لقد كان ذلك حقيقيا مثل أي شيء اخر في حياته ٠٠٠ وموته ٠ بدا طوله سبعة اقدام على الاقل ٠ سقط غطاؤه عنه فبرزت منه قامته هزيلة مروعة كما لو انها برزت من كفن ٠ كان باستطاعتي رؤية قفصه الصدري يهتز وعظام ذراعه تلوح فبدا كتمثال حي للموت مصنوع من عاج قديم يلوح بيده مهددا في حشد ساكن من رجال مصنوعين من برونز قاتم لامع ٠ رأيته يفتح فمه واسعا مما اعطاه هيئة نهم مشؤومة كما لو انه يريد ابتلاع كل الهواء ، كل التراب ، كل الرجال الواقفين امامه ٠ ووصلني صوت عميق واهن ٠ لا بد انه كان يصيح ٠ وفجأة سقط الى الوراء واهتزت المحفة عندما تقدم الحاملون متمايلين الى الامام مرة اخرى ٠ وفي نفس الوقت تقريبا لاحظت ان الحشد المتوحش يختفي دون اي حركة واضحة للتراجع كما لو ان الغابة التي لفظت تلك الكائنات بمثل تلك المفاجأة قد سحبتهم اليها مرة اخرى كما يسحب النفس بشهقة طويلة ٠

كان بعض الحجاج الواقفين خلف المحفة يحملون اسلحته - اثنتان من بنادق الصيد وبندقية ثقيلة واخرى قصيرة - صواعق ذلك الجوبيتر المثير للشفقة ٠

انحنى المدير عليه متمتما بينما كان يسير محاذيا لرأسه ٠ مددوه في احدى الحجرات الصغيرة - حجرة تتسع لسرير واحد ومقعد خفيف او اثنين فقط ٠ كنا قد احضرنا رسائله الاخيرة وتبعثرت فوق سريره كمية من المغلفات الممزقة والرسائل المفتوحة ٠ وجالت يده بوهن بين تلك الاوراق ٠ صعقتني نيران عينيه والاسترخاء الهادىء في تعبيراته ٠ لم يكن ذلك انهاك المرض فقط ، اذ لم يبد عليه أنه يتألم ، لقد بدا ذلك الشبح متخما هادئا كما ولو كان ذلك

بسبب اللحظة التي حصل فيها على كفايته من العواطف كلها ٠
خشخشت احدى الرسائل بين يديه ، وقال وهو ينظر الى وجهي مباشرة ٠

– « انني سعيد » ٠

كان احدهم قد كتب له عني وها هي تلك التوصيات الخاصة تظهر ثانية ٠ أدهشتني درجة علو صوته التي استعملها دون جهد ودون ان يحرك شفتيه تقريبا ٠ صوت ٠ صوت ٠ لقد كان صوتا محزونا عميقا رنانا بينما بدا الرجل غير قادر على الهمس ٠ وعلى أي حال فقد كان لديه من القوة – المتكلفه بالطبع – ما يمكنه من الاقتراب من انهائنا كما سترون فورا ٠

ظهر المدير صامتا في عتبة الباب ٠ خرجت على الفور فأغلق الستائر خلفي ٠ أما الروسي الذي كان الحجاج يراقبونه بفضول فقد كان يحملق بالشاطىء وتبعت انا اتجاه نظراته ٠

كان في المستطاع تبين اشباح انسانية في البعد تلتحم بحدود الغابة السوداء ٠ وعند النهر وقف شبحان برونزيان متكآن على حربتين طويلتين في ضوء الشمس تعلو رأسيهما قبعتان رائعتان من الجلود المبرقعة ٠ ورغم الايحاء بالحرب الا أنهما كانا يخلدان لراحة مثالية ٠ ومن اليمين الى اليسار وعلى طول الشاطىء المضاء تحرك شبح وحشي عظيم لامرأة ٠

سارت المرأة بخطوات محسوبة متلفعة بثوب مخطط مهدب تدق خطواتها الارض بكبرياء محدثة صلصلة خفيفة وبريقا من حليها البدائية ٠ كانت تشمخ برأسها عاليا بشعرها الذي سرح على شكل خوذة ، وكانت ترتدي صفا من الخلاخيل النحاسية وصل حد الركبة وكان في يدها صف من الاساور الدقيقة النحاسية وصل حد المرفق وقد زينت خديها الاسمرين المائلين الى الصفة بقعتان قرمزيتان واحاطت برقبتها عقود لا تحصى من الخرز الزجاجي ٠ أشياء بازاريه في تعاويذ وعطايا سحرة تدلت منها كانت تتلألأ وترتج عند كل خطوة ٠ لا بد انها كانت ترتدي ما يساوي قيمة عدة أنياب ٠ كانت متوحشة وفاتنة ٠ متوحشة العينين رائعة وكان

هناك شيء مهيب منذر بالسوء في خطوها المتأني الى الامام
السكون الذي حل فجأة بكلّ الارض المحزونة بدت البرية الهائلة وجسد الحياة المولود الغامض ينظر اليها بتأمل كما لو أنها تنظر الى صورة روحها المشبوبة القاتمة ٠

مشت بمحاذاة الزورق ثم وقفت ساكنة بمواجهتنا فسقط ظلها الطويل فوق حافة النهر ٠ كانت سيماء وحشية مأسوية لحزن جامح وألم أبكم تمتزج برعب آت من قرار مصطرع لم يتبلور بعد ٠ وقفت تنظر الينا دون حراك ٠ وكالبرية نفسها كانت تبدو عليها سيماء اكتئاب من جراء قرار غامض ٠ مرت دقيقة بكاملها قبل ان تخطو الى الامام فصدر صليل خفيف وومض معدن أصفر ، واهتزاز حلة مهدبة ثم توقفت كما لو ان قلبها قد خذلها ٠ تذمر الشخص الواقف بجانبي وتمتم الحجاج خلفي ٠ نظرت الينا جميعا كما لو ان حياتها متوقفة على ثبات تلك النظرة ٠ وفجأة فتحت ذراعيها العاريين ورفعتهما بقوة فوق رأسها كما لو ان ذلك قد تم برغبة جامحة للمس السماء ٠ وفي الوقت نفسه كانت الظلال تتحرك بسرعة على الارض وتنساب فوق النهر لتحتضن الزورق في عناق ظلالي ، وخيم صمت رهيب على المشهد ٠

استدارت ببطء ومضت بمحاذاة الضفة واستدارت الى اليسار داخلة بين الشجيرات ٠ ولمرة واحدة فقط ارتد لمعان عينيها الينا من خلال ظلمة الاجمة قبل ان تختفي ٠

« اعتقد انها لو طلبت الصعود الى ظهر الزورق لحاولت قتلها « قال الرجل ذو الملابس المرقعة بعصبية - » لقد كنت اخاطر بحياتي يوميا خلال الاسبوعين الماضيين كي ابقيها بعيدا عن المنزل ٠ وفي احد الايام دخلت واثارت شجارا حول تلك الرقع البائسة التي جلبتها من المخزن لاصلح بها ملابسي ٠ لم اكن مهذبا او على الاقل يبدو ان الامر كان كذلك لانها تكلمت الى كورتز بثورة لمدة ساعة كانت تشير خلالها الي من حين لاخر ٠ انني لا افهم لهجة هذه القبيلة ٠ ومن حسن حظي ان كورتز كان مريضا الى حد لم يبد معه اي اهتمام في ذلك اليوم والا لحدث ما لا تحمد عقباه انني لا

افهم ···· كلا ان هذا لكثير علي ، حسنا لقد انتهى كل شيء الان » ·

وفي هذه اللحظة سمعت صوت كورتز العميق يأتي من خلف الستارة :

ـ « انقذني ··· أنقذ العاج ايها الوغد · لا تخبرني ، انقذني· كان علي ان انقذك ، انك تعيق خططي الان · مريض ، مريض ، لست مريضا الى الحد الذي تتمنى ان تصدقه · لا يهم ، فلسوف انقذ افكاري · سأعود وسأريك ما الذي يمكن فعله · أنت ، بأفكار الباعة الجوالين التافهة ··· انك تتدخل بشؤوني · سأعود ···· »

أتى المدير وشرفني بأن وضع يده تحت ابطي وانتحى بي جانبا وقال :

ـ « انه منحط · منحط جدا » ·

اعتبر المدير أن من الضروري أن يتنهد ولكنه لم يبال بأن يبدو حزينا باستمرار ·

ـ « لقد بذلنا غاية جهدنا من أجله اليس كذلك ؟ ولكن الحقيقة البادية للعيان هي أن كورتز قد أضر بالشركة أكثر مما افادها · لم يدرك أن الوقت لم يكن قد حان بعد للعمل الدؤوب · بحذر ، بحذر ··· هذا هو مبدئي · يجب علينا انـنكون حذرين · ان المنطقة مغلقة دوننا لفترة من الزمن · يا للبؤس ستتعرض المهنة للمتاعب على الاغلب ·· انني لا أنكر أن هنالك كمية كبيرة من العاج ···· معظمها بال · لكننا سننقذه على جميع الاحوال ··· ولكن انظر كم الوضع خطير ··· ولماذا ؟ لان الاسلوب فاسد » ·

ـ « أتسمي هذا أسلوبا فاسدا ؟ »

قلت وانا انظر للشاطىء ·

ـ « بدون شك » قال بحرارة « الا ترى ذلك ؟ »

ـ « لم يكن هنالك أسلوب على الاطلاق » تمتمت بعد قليل :

ـ « بالضبط » قال متهللا « لقد توقعت ذلك · ان هذا ليدل على جهل تام بالحكم على الاشياء ، ان من واجبي ان اشير الى ذلك في الوقت المناسب · »

- « اه ... ذلك الشخص ... ما اسمه ؟ ... صانع الطوب .
سيكتب لك تقريرا جيدا » .

بدا مرتبكا للحظه وخيل لي انني لم استنشق هواء بمثل هذا الفساد من قبل وانتقلت بفكري نحو كورتز طلبا للراحة .. للراحة فعلا .

- « ومع كل ذلك فانني اعتقد ان كورتز رجل عظيم » قلت مؤكدا .

اجفل والقى الي بنظرة باردة ثقيلة وقال بهدوء تام :

- « لقد كان » .

وادار ظهره فانتهت ساعة الافضلية بالنسبة لي ووجدت نفسي اوضع مع كورتز في خانة انصار اساليب لم يحن اوانها بعد : كنت فاسدا ! آه ! ولكن من الجيد أن يكون هناك مجال لاختيار الكابوس على الاقل .

كنت في الواقع قد انتقلت الى البرية لا الى السيد كورتز الذي كنت على استعداد للاعتراف بأنه لم يكن افضل من المدفون . وخيل لي للحظة انني انا ايضا مدفون في قبر فسيح مليء بالاسرار غير المباحة . وشعرت بثقل لا يحتمل يضغط على صدري برائحة الارض الرطبة . بالحضور الخفي للخراب المنتصر . بظلمة ليلة صلده ... ولمس الروسي كتفي . وسمعته يغمغم ويتمتم بشيء حول اخي البحار .. لم يستطع اخفاء .. المعرفة بالامور التي من شأنها التأثير على سمعة كورتز وانتظرت . فبالنسبة له لم يكن كورتز في القبر وأظن ان كورتز كان بالنسبة اليه أحد الاشياء الخالدة .

- « حسنا » قلت اخيرا « تكلم فانا كما ترى صديق كورتز بطريقة ما » .

ذكر لي بكثير من الرسمية اننا لو لم نكن « زملاء مهنة » لاحتفظ بالامر لنفسه دون النظر الى العواقب « كان يعتقد ان هناك ضعفا تجاهه عند هؤلاء الرجال البيض الذين .... »

- « انك على حق » قلت متذكرا حديثا معينا كنت سمعته « يعتقد المدير انك تستحق الشنق » .

وأبدى اهتماما بهذا الذكاء الذي امتعني في البداية ٠

« ان من الافضل لي الابتعاد عن الطريق بهدوء » قال بشغف « لم يعد باستطاعتي عمل شيء من أجل كورتز الآن ٠ وسيجدون ذريعة ما عما قريب ٠ ما الذي سيمنعهم ؟ ان هنالك مكتب بريد عسكري على بعد ثلاثمئة ميل من هنا » ٠

ـ « حسنا استمع الي ٠ ربما كان من الافضل لك ان ترحل ان كان لك أي أصدقاء بين المتوحشين في الجوار » ٠

ـ « كثيرون » اجاب « انهم قوم بسطاء ٠٠٠ وأنا لا اريد شيئا كما تعلم ٠٠ » ووقف يعض شفتيه ثم قال : « لا اريد ان يلحق بهؤلاء البيض اي أذى ولكنني كنت بالطبع افكر بسمعة كورتز ٠٠٠ لكنك أخ بحار ٠٠٠٠ »

« حسنا » قلت بعد فترة « ان سمعة كورتز في امان معي » ٠

ولم أدر كم كنت مصيبا في قولي ٠ وأخبرني خافضا صوته ان كورتز هو الذي امر بشن الهجوم على الزورق ٠

ـ « كان في بعض الاحيان يكره فكرة ان يؤخذ بعيدا ومرة أخرى ٠٠٠ ولكنني لا أفهم هذه الامور انني رجل بسيط ٠ كان يظن ان ذلك سيخيفك فترحل ٠٠٠ أنك ستتخلى عن الامر كله ظانا أنه قد مات ٠ لم أستطع ان امنعه ٠ أوه لقد مررت بوقت عصيب من جراء ذلك في الشهر الماضي ٠

ـ « حسنا انه بخير الآن » ٠

ـ « نعـم » ٠

قال متمتما دون ان يبدو عليه الاقناع ٠

« اشكرك ٠ سأفتح عيني جيدا » ٠

ـ « ولكن بهدوء » قال قلقا : « سيكون سيئا جدا لسمعته لو أن أحدا هنا ٠٠٠ »

ووعدته بكتمان تام للسر بوقار كبير ٠

ـ « عندي قارب صغير وثلاثة من الاصدقاء السود ينتظرونني في مكان غير بعيد من هنا ٠ سأغادر هل يمكنك اعطائي بعض الذخائر لبندقيتي المارتيني ؟ »

كان باستطاعتي وقد فعلت بسرية تامة وحصل لنفسه بغمزة لي من عينيه على حفنة من التبغ ٠

- « بين البحارة ٠٠ كما تعلم ٠٠ التبغ الانكليزي الجيد » وعند باب حجرة القيادة استدار ٠٠

- « ألا تملك زوجا من الاحذية يمكنك الاستغناء عنه ٠ ورفع أحد رجليه انظر » ٠

كان النعلان مربوطان بخيوط منسوجة كالصندل تحت قدميه العاريين ٠ وأخرجت زوجا قديما نظر اليه باعجاب قبل ان يدسه تحت ابطه الايسر ٠ كانت احدى جيوبه حمراء فاقعة تنتفخ بالذخيرة وأطل من الاخرى ٠ زرقاء غامقة ، « بحث تاوسون » ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠ وبدا كما لو أنه يعتقد انه مستعد تماما لمواجهة جديدة مع البريـة ٠

« آه لن اقابل مثل هذا الرجل ثانية ابدا ٠ كان يجب أن تسمعه يلقي شعرا ٠٠٠ شعره هو لقد أخبرني بذلك ٠ شعر » ٠

وجال بنظره نحو ذكرى تلك المسرات ٠

« آه لقد وسع مداركي » ٠

- « الـوداع » ٠

قلت له فصافحني واختفى في الظلام ٠ وأسـائل نفسي في بعض الاحيان ان كنت حقا قد شاهدته ٠٠٠ ان كان بالامكان مقابلة مثل تلك الظاهرة ٠٠٠

عندما استيقظت بعيد منتصف الليل خطر لي تحذيره الموحي بالخطر الذي بدا في ذلك الظلام المرصع بالنجوم ، حقيقيا بما فيه الكفاية بحيث جعلني انهض لالقاء نظرة حولي ٠ وهناك عـلى التل كانت نار كبـيرة تشتعل مضيئة الـزاوية المنحنية لمبنـى المحطة ٠ وكان احد الموظفين تصحبه مجموعة قليلة العـــدد من زنوجنا المسلحين لهذا الهدف يقومون بحراسة العاج ٠ ولكن ومضا أحمر كان يتردد في عمق الغابة ، بدا نازلا صاعدا من الارض من بين اشكال عمودية مضطربة من السواد الكثيف اظهرت الموضع الدقيق للمخيم حيث كان عبدة كورتز يقومون بنوبتهم الحراسية

المضطربة • وملأ دق طبول رتيب الجو بهـــزات مكتومة وتردد متصل • وأتى من ناحية الجدار الاسود المنبسط من الاحراش صوت طنين متصل لكثير من الرجال يغنـــي كل منهم لنفسه تعزيمـة مشؤومة كما يأتي طنين النحل من احدى الخلايا ، كان له عـلى أحاسيسي نصف المستيقظة تأثير مخدر غريب • واعتقد أنني اتكأت بتكاسل على الحاجز الى أن أيقظني انفجار صراخ فجائي • انفجار جامح لنوبة سعار غامضة حبيسة فنهضت دهشا محيرا • وفجأة انتهى كل شيء واستمر الطنين الخفيف كصمت مهـديء مسموع • ووقع نظري صدفة على الحجرة الصغيرة • كان هنالك ضوء في الداخل لكن السيد كورتز لم يكن هناك •

أظن انني لو صدقت عيني لاطلقت صرخة مدوية • لكنني لم أصدقهما في البداية فقد بدا الامر مستحيلا • كنت في الواقع قد فقدت أعصابي من جراء رعب مجرد خاو • رعب مجرد تماما لا يمت بصلة الى أي شكل محدد لخطر حقيقي • وكان السبب الذي جعل هذه العاطفة مدمرة – لا أدري كيف أعرفها – هو الصدمة الاخلاقية التي تلقيتها ، كما لو أن شيئا وحشيا ثقيلا على العقل كريهـا على الروح في الوقت نفسه قد قذف علي فجأة • لم يستغرق ذلك بالطبع أكثر من جزء من الثانية • ثم بـدا الاحساس الطبيعي بالخطر المميت العادي ، بامكانية الذبح والتقتيل الفجائي أو أي شيء آخر من هذا القبيل ، مما رأيته عائقا ، بدا سارا مريحا • لقد أراحني ذلك كثيرا في الواقع لدرجة انني لم أعلن حالة الانذار • كان هنالك موظف يلبس رداء ايرلنديا فضفاضا محـكم الازرار يغط في النوم فوق كرسي على ظهر الزورق لا يبعد عني أكثر من ثلاثة أقدام • لم توقظه الصرخات بل ظل يصدر شخيرا خفيفـا فتركته لنومه وقفزت باتجاه الشاطيء •

لم أخذل السيد كورتز – كانت الاوامر ألا أخذله أبدا – فقـد كتب علي ان أبقى مخلصا لكابوسي المختار • كنت اخشـى أن اتعامل مع هذا الظل وحيدا • وحتى اليوم لا أدري لماذا لم أرغب بمشاركة أحد لي في ذلك السواد الفريد لتلك التجربة •

حالما وصلت الضفة ، شاهدت ممرا عريضا يخترق الحشائش •

ولا أزال اذكر الجدل الذي قلت فيه لنفسي « انه لا يستطيع السير ... انه يزحف على أربعته ... سأتمكن منه » كانت الاعشاب مبللة بالندى • سرت سريعا بقبضتين مطبقتين • واعتقد أنه كانت لدي فكرة غامضة حول القبض عليه وتحطيمه • لا أدري • كانت تراودني أفكار حمقاء • واقتحمت النساجة العجوز صاحبة القطع ذاكرتي كنقيض لمن يمكن ان يكون في الطرف المقابل لمثل تلك الحالة • ورأيت صفا من الحجاج يطلقون النار في الهواء من بنادق الونشستر التي التصقت بأفخاذهم • وظننت أنني لن أعود الى الزورق ثانية ، وتخيلت نفسي أحيا وحيدا أعزل في الغابات حتى سن متقدم • أشياء سخيفة • واذكر أن ضربات الطبول اختلطت بدقات قلبي وأنني سررت لانتظامها الهادىء •

سرت مع الممر ثم توقفت مصغيا • كانت الليلة صافية • فراغ أزرق معتم يتلألأ فيه الندى والنجوم بينما بقيت الاشياء السوداء ساكنة • وظننت أنني رأيت شيئا يتحرك أمامي ، ومن الغريب أنني كنت زائد الثقة بكل شيء تلك الليلة • كنت قد تركت الممر وركضت في نصف دائرة واسعة (ضاحكا بيني وبين نفسي كما اعتقد) لكي استبق ذلك الشيء المتحرك ، تلك الحركة التي رأيتها ـ ان كنت رأيت شيئا بالفعل ـ • كنت أطوق كورتز كما لو كانت تلك لعبة صبيانية •

ظفرت به ولو لم يسمعني لانقضضت عليه الا أنه نهض في الوقت المناسب • نهض بقامته الشاحبة الطويلة المتقلقلة غير الواضحة المعالم كالبخار تنفثه الارض • وتمايل قليلا أمامي صامتا ضبابي الهيئة ، وخلفي بدت ذوائب النيران بين الاشجار وهمهمة أصوات كثيرة تأتي من الغابة • لقد استطعت عزله ببراعة ولكنني عدت الى وعيي عندما أصبحت بمواجهته • رأيت الخطر بحجمه الحقيقي ، لقد انتهى كل شيء بلا جدال • لنفترض انه بدأ بالصراخ ؟ فرغم انه كان بالكاد يستطيع الوقوف الا أن قوة كبيرة كانت ما تزال في صوته •

ـ « اغرب عني ... اختبىء » •

قال بذلك الصوت العميق • لقد كان ذلك مرعبا • نظرت

خلفي • كنا لا نبعد اكثر من ثلاثين ياردة عن اقرب حريق • ونهض شبح اسود وسار علي ساقين سوداوين طويلتين ملوحا بذراعين أسودين طويلين اتيا عبر الوهج • كانت له قرون - قرون ظبي كما اعتقد - فوق رأسه • لا شك أنه كان احد المشعوذين او السحرة فقد بدا شيطانيا بما فيه الكفاية •

- « أتدري ما الذي تفعله ؟) همست •

- « تماما » اجاب رافعا صوته بهذه الكلمة الواحدة وقد بدت لي بعيدة ، ولكن عالية كهتاف آت من بوق سمع • وفكرت لنفسي بأننا لا بد ضائعان ان افتعل شجارا ، ولم يكن ذلك وضع شجار بالطبع • وحتى بمعزل عن الكراهية الطبيعية لذلك ، فقد كان علي أن أتغلب على ذلك الظل ••• ذلك الشيء المعذب التائه •

- « لقد قضي عليك ••• قضي عليك لا محالة » صحت قائلا •

يحدث احيانا أن يلتمع الذهن • بايحاء ما كما تعلمون • لقد قلت الشيء المناسب رغم انه لم يكن ابدا محبطا كما كان في تلك اللحظة حين كانت أسس مودتنا توضع لتدوم ••• لتدوم حتى النهاية ••• وحتى ما بعد النهاية •

- « لدي خطط عظيمة » تمتم بتردد •

- « نعم • ولكن ان حاولت الصراخ فسأحطم رأسك بـ ••• »

لم تكن هنالك عصا أو حجر في الجوار « سأكتم أنفاسك الى الابد » قلت مصححا نفسي •

- «لقد كنت على أعتاب أمور عظيمة » قال راجيا بصوت تواق • بلهجة حزينة أجرت الدم باردا في عروقي « والآن من اجل هذا الوغد الاحمق ••• »

- « لقد تأكد نجاحك في أوروبا على أية حال » أكدت له بحزم •

لم أكن أرغب في كتم أنفاسه فعلا ••• فبالتأكيد لن تكون لذلك سوى فائدة ضئيلة حسب أي تفكير عملي • وحاولت أن أفك الطلسم - طلسم البرية الثقيل الأبكم - الذي بدا وكأنه يجذبه نحو صدرها القاسي بايقاظه الغرائز الوحشية المنسية • بذكرى

الرغبات الوحشية المشبعة • كان هذا فقط كما اعتقد هو الذي مضى به الى طرف الغابة ، الى الحرش نحو وهج الحرائق وقرع الطبول وطنين تعازيم الشؤم • هذا فقط هو الـذي أغوى روحه المتمردة الى ما وراء الطموحات المشروعة • أفلا ترون الى ان المرعب في الوضع لم يكن الضرب على الرأس ـ رغم أنه كان لدي احساس حيوي بهذا الخطر أيضا ـ بل بأنه كان علي أن أتعامل مع كائن لا أستطيع مناشدته باسم أي شيء على الاطلاق • بل كان علي أن أتضرع كالزنوج اليه ، الى وضاعته المجدة اللامعقولة • لم يكن هنالك شيء فوقه أو تحته • وكنت أعرف ذلك • فلقد ألقى بنفسه بعيدا عن العالم • اللعنة على ذلك الرجل فقد مزق العالم تمزيقا • كان وحيدا وكنت أمامه لا أدري ما اذا كنت واقفا على الارض او محلقا في الفضاء • انني أخبركم بما كنا نقول ـ أكرر الجمل التي تفوهنا بها ـ ولكن ما الفائدة ؟ كانت تلك كلمات يومية عادية ••• الاصوات المألوفة المبهمة التي نستخدمها كل يـوم في حياتنا • ولكن ماذا عن كل ذلك ؟ لقد كان وراءها ـ كما رأيت ـ الايحاء المرعب للكلمات التي نسمعها في الحلم • للجمل التي تسمع في الكوابيس • الروح ! ان حدث وتصارع رجل مع روح فأنا ذلك الرجل • لم أكن اتشاجر مع مجنون • ولكم ان تصدقوني أو لا فقد كان من الواضح أن ذكاءه ـ رغم أنه كان يتركز حول نفسه بشكل رهيب الا أنه كان جليا ، وهنا كانت فرصتي الوحيدة ـ هو الذي كان يحول دون مقتله في ذلك الوقت وذلك المكان ، اذ لم يكن ذلك مناسبا بسبب من الضجة التي لا يمكن اجتنابها • لكن روحه كانت مجنونة • فلكونها وحيدة في تلك البرية نظرت الى داخل نفسها وجنت • جنت اقول لكم • وبسبب من خطاياي ـ كما اظن ـ كان علي ان امر بتجربة النظر الى دخيلتي • لا يمكن لأية بلاغة ان تكون مدمرة للايمان بالجنس البشري كزفرة الصدق الاخيرة • لقد حاول مع نفسه هو ايضا ، وأنا رأيتها••• سمعتها • رأيت الغموض المستحيل لروح لم تعرف الحدود أو الايمان او الخوف • لكنها تجاهد على غير هدى مع نفسها •

بقيت متماسكا • ولكنني عندما مددته على الاريكة اخيرا مسحت جبهتي بينما اهتزت قدماي كما لو انني قد حملت نصف طن على ظهري ونزلت به ذلك التل •

لم أقم بأكثر من اسناده ، اذ أطبقت ذراعه النحيلة العظيمة حول عنقي لكنه لم يكن أثقل من طفل ٠

عندما غادرنا ظهرا في اليوم التالي تدفق الحشد ، الذي كنت طوال الوقت مدركا لوجوده خلف الستارة الشجرية ، مرة أخرى من بين الاشجار ، وملأ الخلاء وغطى المنحدر بكتلة من الاجساد العارية اللاهثة المرتجفة البرونزية اللون ٠ صعدت بالزورق قليلا ثم درت متجها مع المجرى بينما كانت ألفان من الأعين تتابع ازدياد انفلاش الماء وضربات المحرك ٠ شيطان النهر الوحشي يضرب الماء بذيله المرعب وينفث الدخان الاسود في الهواء وفي مقدمة الصف الاول من الناس كان هنالك ثلاثة رجال يكسوهم التراب الاحمر اللامع من رؤوسهم حتى أخامص أقدامهم ، يختالون رائحين غادين بلا توقف٠ وعندما حاذيناهم مرة أخرى كانوا يواجهون النهر ضاربين الارض بأقدامهم هازين رؤوسهم القرناء متمايلين بأجسادهم القرمزية ٠ كانوا يهزون في وجه شيطان النهر الوحشي بحزمة من الريش الاسود وجلد بال بذيل مدلى ـ شيء بدا كقرعة مجففة ٠ كانوا يصرخون على فترات متقطعة بسيول من الكلمات العجيبة التي لم تكن تشبه أي لغة بشرية ثم تنقطع غمغمات الجمع العميقة فجأة كما لو أنها تستجيب لابتهال شيطاني ٠

كنا قد حملنا كورتز الى حجرة القيادة ، فقد كان هناك هواء أكثر ٠ ومن على الاريكة التي استلقى عليها كان يحملق من خلال المصراع المفتوح ٠ كانت كتلة الاجساد البشرية في دوامة وهرعت المرأة ذات الخوذة والخدود المائلة الى الصفرة نحو حافة الزورق ومدت ذراعيها وصرخت شيئا فتلقى الجمع المتوحش الصرخة بهدير من الالفاظ المتناسقة السريعة اللاهثة ٠

ـ « اتفهم ذلك ؟ » سألته٠

استمر في النظر الى الخارج غير آبه بي بعينين ناريتين تواقتين امتزجت فيهما تعابير الحزن بالكراهية ٠ لم يجب ، لكنني لمحت ابتسامة مبهمة ترتسم على شفتيه الشاحبتين اللتين ارتعشتا بتشنج بعد لحظة ٠

ـ « ألا افهما ؟ »

قال ببطء وهو يلهث كما لو ان الكلمات الخارجة من فمه قد تمزقت بفعل قوة خارقة ٠

سحبت حبل الصفارة ٠ فعلت ذلك لانني رأيت الحجاج الذين على ظهر السفينة يخرجون بنادقهم كمن يستشعرون لهوا بهيجا٠ وعند الصفرة الاولى كانت هنالك حركة رعب قانط تخترق كتلة الاجساد تلك ٠

ـ « كلا لا ترعبهم » صرخ شخص على ظهر الزورق بصوت يتفطر حزنا ٠ وسحبت الحبل مرة بعد اخرى فتشتتوا راكضين أو قافزين او جاثين بتذلل ٠ انعطفوا وراوغوا رعب الصوت المحلق ٠ واستلقى الرجال الحمر الثلاثة على الشاطىء بوجوههم للاسفل كمن ارداهم الرصاص قتلى ٠ وحدها المرأة المتوحشة الرائعة لم تجفل فرفعت ذراعيها العاريين بحزن وألم نحونا عبر النهر الداكن اللألاء ٠

بعد ذلك بدأ الحشد الغبي فوق ظهر الزورق لهوهم التافه ، ولم استطع ان أرى أكثر من ذلك بسبب الدخان ٠
جرى الماء البني اللون سريعا منبثقا من قلب الظلام ٠ متجها بنا الى الاسفل نحو البحر بسرعة تبلغ ضعف سرعة صعودنا ٠ وحياة كروتز هي الاخرى كانت تمضي بسرعة ٠ كانت تنحسر تنحسر عن قلبه ماضية نحو بحر الزمن الذي لا يرحم ٠ كان المدير متماسكا فليست لديه الان أية مخاوف ٠ وقفنا نحن الاثنين بنظرة شاملة رضية ٠ لقد انتهت « القضية » على خير ما يمكن ان يشتهى٠ ورأيت الوقت الذي أترك فيه وحيدا بعيدا عن « الاسلوب الفاسد » يقترب ٠ ونظر الحجاج الي بازدراء ٠ كنت في عداد الاموات تقريبا٠ غريب كيف انني قبلت تلك الشراكة غير المنظورة وخيار الكوابيس ذاك الذي فرض على في تلك الارض القاتمة ٠ تنتهكه تلك الاشباح الشرهة الدنيئة ٠

تكلم كورتز ٠ صوت ! صوت ! تردد عميقا في الاغوار ، بقي بعد ذهاب قوته ليخبىء ظلمة قلبه القاحلة في ثنايا بلاغته العظيمة٠ لقد جاهد وجاهد وسكنت بقايا عقله البالي صور ظلالية ـ صور

الثروة والشهرة تحوم الان بتـــذلل حول موهبـــة التعبير المترفـع المتغطرس التي لا يمكن اخمادها • خطيبتي ، محطتي ، مستقبلي، أفكاري •• كانت تلك مواضيـــع خطب المشاعر الـــرفيعة المعدة للمناسبات كان ظل كورتز الاصلي يتردد حـول كـورتز الزائف الخاوي الذي يتوجب دفنه الان في ثرى تلك الارض البدائية • لكن الحب الجهنمي والكراهية الاسطورية للاسرار التي اخترقها جاهدا من أجل امتلاك تلك الروح المتخمة بالعواطف البدائية ، التواقـة للشهـرة الكاذبة والتميز الزائف وكل مظاهر النجاح والقوة •

كان في بعض الاحيان طفوليا بشكل يثير الازدراء • كان يرغب في أن يقابله الملوك عند محطة السكة الحديد لدى عودته من المجهول حيث كان ينوي انجاز اشياء عظيمة • كان سيقول « أرهم أن ثمة شيئا مربحا فيك وبعد ذلك لن تكون هناك حدود للاعتراف بكفاءتك» « ويجب عليك بالطبع أن تحافظ على الدوافع ••• الدوافع الصحيحة ودائمــا » •

كانت الامتدادات الطويلة التي بدت وكأنها واحدة والانحناءات الرتيبة المتماثلة تنزلق من جانبي الزورق واشجارها الكثيرة العجوز تحرس بصبر تلك القطعة المتسخة مـــن عالم اخر رائد في التغير والغزو والتجارة والمذابح والبركا ت• نظرت الـــى الامام موجهـــا الـــزورق •

« ـ اغلق تلك المصاريع » قال كورتز فجأة في احد الايام « انني لا احتمل النظر الى ذلك » واغلقتها وكان هنالك صمت •

ـ « آه ولكننـــي سأعتصر قلوبكم » صرخ في البريـــة غير المنظـورة •

أصاب الزورق عطل ـ كما كنت توقعت ـ وكان علي أن اتوقف عند رأس احدى الجزر لاصلاح العطل • كان ذلك التأخير هو أول ما هز من ثقة كورتز • ذات صباح قدم لي علبة من الاوراق وصورة ـ كانت كلها مربوطة برباط حذاء ـ وقال :

« احتفظ لي بهذه ، فمن الممكن ان يتطفل ذلك الاحمق الجبان

(يقصد المدير) على صناديقي وأنا ساه .

« ورأيته عصرا . كان مستلقيا على ظهره بعينين مغمضتين فانسحبت بهدوء لكنني سمعته يتمتم « عش باستقامة ، مت ، مت ... » واصغيت . لم يكن هناك من مزيد . أكان يلقي خطبة في منامه ام كان ذاك جزءا من جملة من مقالة بأحدى الصحف ؟ كان يكتب في الصحف وكان ينوي ان يفعل ذلك من جديد « لتعزيز افكاري ان هذا لواجب » .

كان ظلامه صلدا لا يمكن اختراقه . نظرت اليه كمن يطل على رجل مستلق في قاع جرف لا يصل اليه شعاع أبدا . ولكن لم يكن لدي الكثير من الوقت لاعطيه له . فقد كنت أساعد السائق في تفكيك اجزاء المحرك المعطوبة او تصحيح قضيب مثني او اشياء اخرى من هذا القبيل . كنت اعيش في فوضى جهنمية من الصدأ والبرادة والصواميل والمزاليج والمفاتيح والمطارق والمثاقب ... أشياء كنت امقتها لاني لم اكن انسجم معها . كنت اتولى امـر الكبير الصغير الذي كان معنا على ظهر الزورق لحسن الحظ . كنت اجاهد في اكوام قطع الخردة البالية حين لا تكون الاهتزازات مـن القوة بحيـث لا استطيع احتمالها .

في احدى الامسيات وبينما كنت ادخل بشمعة في يدي اجفلت حين سمعته يقول بصوت مرتعش :

« انـني ارقد هنا في هذا الظلام انتظر الموت » .

قربت الضوء الى ان أصبح على بعد قدم واحد من عينيه . وأجبرت نفسي على أن اتمتم « آه هراء » . ثم وقفـت فوقـــه كالمسمـر .

لم أر من قبل شيئا يشبه ذلك التغير الذي طرأ على ملامحـه وامل الا ارى ذلك ثانية . لم أتأثر . لقد سحرت . كان ذلك أشبـه بغلالة تنشق عنه ، ورأيت على ذلك الوجه العاجي تعابير الكبرياء والقوة الغاشمة والرعب المذعور ليأس شديد قاتل . أتراه قد عاش حياته ثانية بكل تفاصيل الرغبة والغواية والاستسلام خلال تلك اللحظة السامية من المعرفة الكلية ؟ وصرخ هامسا الى صورة الى

طيف ـ صاح مرتين صيحة لم تكن اكثر من زفرة ٠
« الرعب ٠٠٠ الرعب » ٠
أطفأت الشمعة وغادرت الحجرة ٠

كان الحجاج يتناولون العشاء في غرفة الخردوات ٠ اتخذت مكانا لي مقابل المدير الذي رفع عينيه بنظرة متسائلة نجحت في تجاهلها ٠ أسند ظهره الى الخلف وجلس ساكنا بتلك الابتسامة الغريبة التي يختم بها على اغوار دناءته غير المعلنة ٠ وتدفق سيل لا ينقطع من الذباب الصغير نحو المصباح ، فالملابس ، فأيدينا ووجوهنا ٠ وفجأة وقف خادم المدير برأسه الاسود المتغطرس في عتبة الباب وقال بلهجة ازدراء مريرة :

ـ « السيد كورتز ٠٠٠٠ مات » ٠

وهرع الحجاج جميعا ليشاهدوا ، وبقيت انا وأكملت عشائي واعتقد انني اعتبرت وحشي القسوة ٠ الا انني لم آكل كثيرا ٠ كان هنالك مصباح ـ ضوء ـ وفي الخارج كان ظلام وحشي وحشي ٠ لم اقترب بعد ذلك من الرجل **العظيم** الذي اصدر حكما على مغامرات روحه في تلك الارض ٠ ذهب الصوت ، فماذا تبقى بعد ؟ لكنني أعلم بالطبع ان الحجاج قد دفنوا شيئا في الحفرة الموحلة في اليوم التالي ٠ وبعد ذلك كادوا ان يدفنوني ٠

وكما ترون فانني لم ألتحق بكورتز هناك وفي ذلك الوقت ٠ لم أفعل بل بقيت لأرى الكابوس حتى النهاية ولأظهر اخلاصي لكورتز مرة اخرى ٠ القدر ٠ قدري ! مضحكة هي الحياة ـ تلك المنظومة الغامضة من المنطق الذي لا يرحم من اجل هدف عبثي وأكثر ما يمكن أن تأمل منها هو بعض معرفة بنفسك ٠ ـ تأتي بعد فوات الاوان ـ محصول ندم لا تخمد ناره ٠ لقد صارعت الموت٠ انه أقل الصراعات التي يمكن تصورها اثارة ، يحدث في الكآبة المجردة حيث لا شيء تحت قدميك ، لا شيء حولك بدون جمهور أو ضوضاء أو مجد وبدون الرغبة الجامحة بالانتصار ، بدون الخوف الكبير من الهزيمة في جو سقيم من الريبة الفاترة ٠٠٠ وبدون الكثير من الايمان بحقك وبدرجة أقلّ بحق خصمك وان كانت الحكمة السامية على هذه الشاكلة فالحياة اذن لغز كبير ٠٠٠ أكبر مما

يعتقده البعض منا • كنت قيد انملة من الفرصة الاخيرة للاقرار
فوجدت ذالا ، بأنه ربما لن يكون لدي شيء لأقوله • ولهذا فانني
أؤكد ان كورتز كان رجلا عظيما • لقد كان لديه شيء يقوله ••
وقد قاله • ولأنني أشرفت على تلك الهوة بنفسي فانني أفهم جيدا
معنى نظرته التي لم تستطع رؤية لهب الشمعة رغم كونها من
السعة بحيث تحتضن العالم كله ، بحيث تخترق كل القلوب التي
تخفق في الظلام • لقد قام بالاختصار ••• قام باصدار الحكم •
« الرعب » كان رجلا عظيما وقد كان ذاك تعبيرا عن نوع من
الايمان • كان فيه الصدق وفيه الادانة وفي الهمس به كان لمح
الثورة • وفيه بدا الوجه المروع لحقيقة شوهدت لمح البصر •••
ذلك المزيج الغريب من الشهوة والحقد ولم يكن ذاك يأسي كما
أذكر جيدا • ـ رؤيا رمادية لا كيان لها يملأها ألم جسدي • وازدراء
لا مبال لاضمحلال الاشياء ـ • حتى ذلك الالم نفسه • كلا • يبدو
أنني عشت يأسه هو • حقا انه قام بتلك الخطوة الاخيرة • لقد
خطا من فوق تلك الهوة بينما كان لي أن أسحب قدمي المترددة •
وربما هنا فقط يكمن كل الفرق • ربما تكتلت كل الحكمة وكل
الحقيقة وكل الاخلاص في تلك اللحظة الكريهة من الزمن • تلك
اللحظة التي نعبر فيها عتبة ما لا يرى • ربما ! وأحب أن أعتقد
أن اختصاري كان حريا ألا يكون كلمة ازدراء لا مبال ، فتلك الصرخة
أفضل • أفضل بكثير •• كانت تأكيدا ، نصرا أخلاقيا عوضت عنه
هزائم لا تحصى ورعبا واكتفاء مقيتين ، لكنه كان نصرا ولهذا
فقد بقيت مخلصا لكورتز حتى النهاية ، وحتى الى ما بعدها حين
سمعت مرة اخرى وبعد وقت طويل لا صوته هو بل صدى بلاغته
العظيمة آتية من روح في صفاء وشفافية جرف من الكريستال •

لا لم يدفنوني رغم أن هنالك فترة من الزمن أتذكرها بشكل
ضبابي وبحيرة مروعة كطريق في عالم غامض لا أمل فيه ولا
رغبة •

وجدت نفسي مرة أخرى في المدينة الكئيبة يغيظني منظر
الناس الذين يسرعون الخطو لتحصيل بعض المال من بعضهم
بعضا ، لالتهام أطعمتهم التافهة ، لتجرع بيرتهم الكريهة ولرؤية
احلامهم السخيفة • لقد اقتحم أفكاري أولئك الدخلاء الذين لم تكن

معرفتهم للحياة بالنسبة لي غير ادعاء يثير السخط لأنني كنت متأكدا من جهلهم بالاشياء التي أعرفها • وكان مشيهم الذي يشبه مشي الافراد العاديين الذاهبين الى أعمالهم بثقة وأمان مزعجا لي كالخيلاء الاحمق المثير للسخط في وجه خطر هو كجز من أن يستوعبه • لم تكن لدي أدنى رغبة في تنويرهم ولكنني عانيت من بعض الصعوبة في منع نفسي من الضحك في وجوههم التي تفيض أهمية حمقاء •• واعتقد انني لم اكن في حالة جيدة في ذلك الوقت • جبت الشوارع ـ فقد كان لدي الكثير من المسائل لتسويتها ـ أبتسم بمرارة في وجوه أشخاص محترمين • وأعترف بأن سلوكي لم يكن مبررا ولكن درجة حرارتي نادرا ما كانت طبيعية في تلك الايام • ولم تفلح كل محاولات خالتي العزيزة في « معالجة قواي » فلم تكن قواي بحاجة الى علاج بل ان خيالاتي هي التي كانت بحاجة الى تهدئة •

احتفظت برزمة الاوراق التي أعطاها لي كورتز ، دون أن أعرف ما الذي سأفعله بها بالضبط فقد توفيت أمه مؤخرا بعد أن تجاوزها نحو « **خطيئته** » •

ذات يوم استدعاني رجل حليق ذو مظهر رسمي كان يضع نظارة ذات اطار ذهبي وطرح علي بعض التساؤلات بشكل غير مباشر في البداية ، ثم بشكل مهذب بعد ذلك ، حول ما سره أن يسميه ببعض (الوثائق) • لم أدهش لأنه سبق وأن حدثت مشاجرتان بيني وبين المدير حول ذلك الموضوع وقد رفضت أن أسلم أي قطعة من تلك الرزمة • وهو نفس ما فعلته مع الرجل ذي النظارة • وفي النهاية أخذ يتوعد مغضبا • وبكثير من الحماسة قال ان للشركة الحق في الحصول على أية معلومات حول (مناطقها) • وقال ان « معرفة السيد كورتز بالمناطق المجهولة لا بد وأنها كانت بالضرورة جيدة ونادرة ••• بسبب من قدراته الكبيرة ومن الظروف البائسة التي وضع فيها : لذلك ••• »

وأكدت له أنه بغض النظر عن حجم معرفة السيد كورتز فانها لا تشمل مسائل التجارة أو الادارة • وعندها تذرع بالعلم « ستكون خسارة جسيمة لو أن » •• الخ •• الخ • وقدمت له التقرير حول « اضطهاد العادات البدائية » الذي مزقت منه الحاشية • رفعه

بشغف لكنه انتهى بأن نفث فيه بازدراء ٠
ـ « ليس هذا ما كنا نتوقعه » قال معلقا ٠
ـ « وما عدا ذلك فليس هنـــالك من شيء سوى رسـائل شخصية » ٠

انسحب وهو يهدد بدعوى قضائية ٠ ولم أره بعد ذلك ٠ الا أن شخصا آخر ادعى بأنه ابن عم كورتز جاءني بعد ذلك بيومين وكان متلهفا على سماع تفاصيل لحظات قريبه الاخيرة ٠ وحدث أن أفهمني ان كورتز كان في الاساس موسيقيا عظيما ٠

ـ « كان نجاح عظيم يلوح له في الافق » قال الرجل الذي كان عازف اورغن ، على ما اعتقد ، ذا شعر طويل أشيب ينسدل فوق ياقة معطف قذرة ٠ ولم يكن لدي أية أسباب لأشك بهذه المقولة ٠ وحتى هذا اليوم فليس باستطاعتي معرفة حرفة كورتز ان كانت لديه أية حرفة ٠٠٠ وكان ذلك اعظم مواهبه ٠ كنت قـد ظننته رساما يكتب للصحف أو صحفيا كان يستطيع الرسم ولكن حتى ابن العم ذاك (الذي كان يستنشق السعوط خلال المقابلة) لـم يستطع أن يخبرني بما كانه بالضبط ٠ لقد كان عبقريا عالميا وقد اتفقت على تلك النقطة مع ذلك العجوز الذي تمخط عند ذلك بشكل مزعج في منديل قطني كبير وانسحب في هياج خرف حاملا بعض الرسائل العائلية ومذكرة لا أهمية لها ٠

وفي النهاية أتى أحد الصحفيين متلهفا على معرفة شيء عن مصير « زميله العزيز » ٠ وقد اخبرني ذلك الزائر أن جو كورتز الحقيقي لا بد وأنه كان السياسة « على الصعيد الشعبي » ٠ كان له حاجبان فرويان مستقيمان وشعر كـث مقصوص ونظارة أحادية العدسة ووشاح عريض ٠ وما ان زال عنه التحفظ حتى اعترف بأن كورتز لم يكن يعرف الكتابة في الواقع ٠٠٠ « ولكن ، بحق السماء ما أعجب ما يتحدث به ٠ ولقد شحن بالتوتر الكثير من الاجتماعات الكبيرة ٠ لقد كان لديه الايمان ٠٠٠ الا ترى ذلك ؟ كان لديه ايمان ٠ وكان بامكانه اقناع نفسه بأي شيء ٠٠٠ أي شيء ٠ كان بامكانه ان يكون قائدا عظيما لحزب متطرف » ٠
ـ « أي حزب ؟ » سألته ٠
« أي حزب » أجاب الآخر « لقد كان ٠٠٠ متطرفا » ٠

« ألم أعتقد انا ذلك ؟ » قلت مصادقا وبلمحة فضول سأل عما اذا كنت اعرف « ما أغراه بالذهاب الى هناك ؟ » ٠

- « نعـم » ٠

وقمت تسليمه التقرير الشهير لينشره اذا رأى ذلك مناسبا ٠ فتصفحه بسرعة وهو يتمتم طوال الوقت ثم اصدر حكمه « سيكون ذلك نافعا » ٠ ومضى يحمل تلك الغنيمة ٠

وهكذا لم يبق لدي أخيرا سوى علبة صغـيرة من الرسائل وصورة الفتاة ٠ لقد اذهلني جمالها ٠٠٠ أعني أن تعابير وجههـا كانت جميلة ٠

انني أعلم أن بالامكان استخدام الضوء للتمويه ولكنك كنت تشعر بأنه لا يمكن لأية معالجة بارعة للضوء والجلسة أن توصل تلك الظلال الخفيفة من الصدق عبر ملامحها تلك ٠ كانت تبدو متأهبة للاصغاء دون تحفظ ذهني ٠ دون شكوك ودون تكفير مع نفسها ٠ وقررت الذهاب بنفسي اليها لاعطـائها صورتها وتلك الرسائل ٠ الفضول ؟ نعم اضافة الى بعض المشاعر الاخرى ٠ لقد أصبح كل مـا كـان يخص كورتـز خارج يـدي : روحه - جسده - محطته - مخططاته - عاجه ومستقبله ٠ ولم يبق سوى ذكـراه وخطيبته ٠٠٠ وقد أردت أن اتخلى عن ذلك ايضا للماضي بطريقة ما ٠٠٠ لأسلم شخصيا كل ما تبقى منه معي لذلك النسيان الذي كان الكلمة الفصل في مصيرنا المشترك ٠ انني لا ادافع عن نفسي فلم يكن لدي ادراك واضح لما كنت اريده بالفعل ٠ ربما كان ذلك باعث اخلاص غير واع أو انجازا لاحدى تلك الضرورات الساخرة التي تكمن بين ثنايا حقائق الوجود الانساني ؟ لا أدري ، لا أعلم ومع ذلك فقد ذهبت ٠

كنت أظن أن ذكراه تشبه ذكريات الاموات التي تتراكم في حياة كل انسان ٠٠٠ أثر غامض على عقل الظلال التي سقطت عليه في رحلتها الاخيرة ٠ ولكن أمام الباب الضخم العالي ، بين البيوت الشاهقة في شارع يشبه في سكونه واحتشامه زقاقا متواريا في مقبرة، تراءت لي صورته على المحفة فاغرا فاه بنهم كما لو انه سيلتهم كل الارض بمن عليها من بشر ، عندها عاش أمامي ٠ عـاش

بالقدر الذي كان يحياه على الدوام ... خيـالا يشبع من الرؤى الرائعة والحقائق المرعبة . خيالا أشد قتامة من ظل الليل متخفيا بين ثنايا بلاغة عظيمة . بدا طيفه داخلا معي الى البيت ... المحفة ، حاملو الشبح ، الحشد المتوحش من العباد المخلصين ، قتامة الأدغال ، التماعة الامتداد بين الانحناءات المظلمة ، ضرب الطبول منتظما وكتيما كخفق القلب ... قلب ظلام غاز . كانت تلك لحظة انتصار للبرية . اندفاعة غازية منتقمة كان علي كما يبدو أن أبقيها وحيدة هناك لانقاذ روح أخرى ، وذكرى ما سمعته يقوله هناك في البعيد ، حين كانت الاشكال القرناء تتحـرك خلفي في وهج النيران بين الغابات الصابرة ، وتلك الجمـل الناقصة سمعتها ثانية ببساطتها المرعبة المشؤومة . تذكرت دفاعه اليائس ووعيده القانط والمدى الهائل لرغباته الدنيئة ، وضاعته ، عذابه ، وكرب روحه العاصف وفيما بعد تراءى لي أنني شاهدت طريقته الواهنة المستجمعة عندما قال يوما ، « ان هذه الكمية من العاج تخصني ، فالشركة لم تدفع مقابلها . لقد جمعتها بنفسي بمخـاطرة شخصية عظيمة ومع ذلك فانني اخشى ان يحـاولوا ادعاءها لانفسهم . اهـ...م . انها لقضية صعبة . ماذا تعتقد أن علي أن أفعل ... ان اقاوم ؟ آه ؟ لا أريد اكثر من العدل » ... لم يكن يريد اكثر من العدل ... لا اكثر من العدل .

قرعت الجرس المثبت أمام باب من الماهوغاني في الطـابق الاول ، وبينما كنت انتظر كان يتراءى لي محملقا بي من خـلال اللوح الزجاجي بالباب ... محملقا بتلك النظرة الكبيرة الواسعة التي تعانق وتدين وتلوث الكون . وبدا لي انني اسمع الصرخة المهموسة « الرعب ، الرعب » .

كان الشفق يرخي سدوله . وكان علي أن أنتظر في غـرفة استقبال فخمة بها ثلاث نوافذ طويلة تمتد بين الارضية والسقف بدت أشبه بثلاثة أعمدة مضاءة مغطاة . وكانت ارجل وظهـور الاثاث المثنية المذهبة تشـع بانحناءات باهتة . وعلى المدفأة الرخامية الشامخة كان يبدو بياض شاحب بارد وفي احدى الزوايا قبع بيانو كبير ، كانت تشع من فوق سطوحه المنبسطة التماعات

ظلماء فبدا كتابوت حجري لامع كئيب • فتح باب عال ••• أغلق • ونهضت •

تقدمت يجللها السواد وخطت برأسها الشاحب نحوي فبدت اي كالمحلقة في الغسق • كانت في حداد • كان قد مضى اكثر من عام على موته • أكثر من عام على وصول لخبر • بدت كما لو أنها ستظل في ذكرى وحداد أبديين • اخذت كلنا يدي بين يديها وتمتمت:

ـ « لقد سمعت انك قادم » •

ولاحظت أنها لم تكن صغيرة السن ••• أعني لم تكن في سن البنات • كانت لها قدرة كبيرة على الوفاء والايمان والمعاناة • بدأت الغرفة تصبح أكثر اظلاما كما لو أن كل الاضواء الحزينة لتلك الامسية الغائمة قد التجأت الى جبهتها • ذلك الشعر الاشقر • ذلك المحيا الشاحب وذلك الحاجب النقي • بدت محاطة بهالة رمادية ، نظرت الي من خلالها عينان سوداوان • كانت نظراتهما بريئة عميقة واثقة وموثوقة • كان رأسها الحزين يقف بشموخ كما لو انها فخورة بذلك الحزن ، كما لو أنها تقول أنا ••• أنا فقط اعرف كيف البس الحداد عليه بالشكل الذي يستحقه • ولكن بينما كنا لا نزال متصافحين لاحت على وجهها نظرة خذلان رهيب أدركت معها أنها احدى تلك المخلوقات التي لا يستطيع الزمن العبث بها • فبالنسبة لها لم يكن قد مات سوى بالامس بل لقد بدا لي انا ايضا وكأنه لم يمت قبل الامس ••• بل في تلك اللحظة نفسها • لقد رأيتها ورأيته في نفس اللحظة ••• موته وحزنها ••• رأيت حزنها في نفس لحظة موته • أتفهمون ذلك ؟ رأيتهما معا••• سمعتهما معا • كانت قد قالت بالتقاطة أنفاس عميقة :

ـ « لقد عشت » •

بينما بدت أذناي المجهدتان وكأنهما تسمعان بوضوح همسة ادانته المختصرة الازلية ممتزجة برنة أسفها القانط • وسألت نفسي عما كنت أفعله هناك ، واحساس بالذعر يجتاح قلبي كما لو أنني هويت الى مكان يغص بالاسرار القاسية العبثية غير الخلقية بمشاهدة الانسان • أخذتني الى كرسي وجلسنا ، ووضعت العلبة بهدوء على الطاولة الصغيرة ووضعت يدها فوق العلبة :

ـ « كنت تعرفه جيدا » تمتمت بعد لحظة من الصمت الحدادي.
« تنمو المودة سريعا هناك » .

ـ « لقد عرفته كما يمكن لانسان أن يعرف الاخر » .

« ولقد أعجبت به » قالت . « كان من المستحيل أن تعرفه دون أن تعجب به أليس كذلك ؟ »

ـ « كان رجلا عظيما » قلت بغير ثبات ثم وقبل ان تحملق في بنظرتها الثابتة المتوسلة التي بدت مترقبة لمزيد من الكلمات على شفتي .

ـ « كان من المستحيل الا ... »

ـ « تحبه » أكملت بشوق وأسلمتني الي بكم مروع .

« ذلك صحيح ، صحيح ، ولكن عندما تعلم ألا أحد قد عرفه مثلي ان كل ثقته النبيلة لدي . لقد عرفته كأفضل ما تكون المعرفة»

ـ « لقد عرفته كأفضل ما تكون المعرفة » قلت مكررا وربما كان ذلك صحيحا ولكن مع كل كلمة كانت تقال كانت الغرفة تصبح أكثر اظلاما ، ولم تبق غير جبهتها الناعمة البيضاء يضيئها نور الايمان والحب الذي لا يخمد .

ـ« لقد كنت صديقه » استمرت تقول « صديقه » كررت بصوت أعلى « لا بد وأنك كنت كذلك اذ اعطاك هذه وأرسلك الي . وأشعر انني استطيع التحدث اليك و ... آه يجب أن أتحدث . أريدك أنت .... أنت الذي سمعت كلماته الاخيرة ـ أن تعلم أنني كنت جديرة به ... ليس هذا كبرياء .... نعم ، انني فخورة بأن اعلم انني فهمته افضل من أي شخص اخر على وجه الارض ... لقد اخبرني بذلك هو نفسه . ومنذ ماتت أمه لم يبق أحد .. لم يبق أحد .. »

أصغيت ، وأصبح الظلام عميقا ، لم أكن متأكدا من أنه أعطاني الرزمة الصحيحة . بل انني اشك في أنه كان يريد مني أن أحتفظ له برزمة اخرى من اوراقه التي رأيت المدير يتفحصها تحت الضوء بعد موته . وتحدثت الفتاة ، يخفف من الامها يقينها بتعاطفي . تحدثت بنفس الشوق الذي يشرب فيه الرجال

العطاش • كنت قد سمعت ان الناس لم يوافقوا على خطبة كورتز لها •لم يكن غنيا أو شيئا من هذا القبيل • ولا ادري اذا ما كـان معدما طوال حياته • لقد اعطاني سببا للاستنتاج بأن نفاذ صبره من فقرة النسبي هو الذي قاده الـى هناك •

ـ « ••• من الذي لم يكن ليصبح صديقه بعد أن سمعته يتكلم مـرة ؟ » سمعتها تقول « كان يجذب اليه الرجال عن طريق افضل ما كان فيهم » ونظرت الي بحدة « تلك موهبة العظماء » تابعـت وبدت رنة صوتها الخفيض التي ترافقت فيها كل الاصوات الاخرى مليئة بالغموض والحزن والخذلان التي سمعتها في حياتي ••• خرير النهر وأنين الاشجار التي تحركها الرياح وهـدير الجموع والرنين الخافت للكلمات الغامضة التي يصرخ بها عن بعد ، والكلام الذي يهمس به من وراء عتبة الظلمة الابدية •

ـ « لكنك سمعته ، انك تعرف » صرخت قائلة :

ـ « نعم انني اعرف » •

قلت وفي قلبي شيء يشبه القنوط ، ولكنني كنت احني رأسي امام ايمانها • امام ذلك الوهم المنقذ العظيم الذي أشع بوهجه السماوي في الظلام • في احلام المنتصر الذي لم أستطع حمايتها منه ، الذي لم استطع حماية نفسي منه •

ـ « يا لها من خسارة لي ••• لنا » • قالت مصححة بسماحة جميلة ثم اضافت متمتمة ـ « للعالم » •

وعلى ضوء آخر التماعات الشفق استطعت أن أرى عينيها المـلألئتـين المليئتـين بالدمـوع ••• الدموع التي لم تنزل •

ـ « كنت سعيدة جدا •• محظوظة جدا •• فخورة جدا «وأكملت» محظوظة جدا ، سعيدة جدا لفترة قصيرة والآن انني تعيسة الى ••• الى الابد » •

وقفت وبدا شعرها الاشقر مستقطبا كل الضوء المتبقي في التماعة ذهبية ، ونهضت أنا ايضا •

ـ « ومن كلّ ذلك » تابعت بأسى من كل وعوده ، من كـل

عظمته ، من فكره السمح ، من قلبه النبيل ، لم يبق شيء ‥ لم يبق غير الذكرى ‥ انت وانا ‥ »

ـ « سنبقى نذكره على الدوام » قلت بعجلة :

« كلا » صرخت قائلة : « مستحيل ان يضيع كل هذا ‥ أن يضحى بمثل تلك الحياة دون ان يبقى شيء ‥ غير الحزن ٠ أنت تعلم أي مخططات عظيمة كان لديه ‥ لكن آخرين عرفوا عنها ٠ يجب ان يبقى شيء فكلماته على الاقل لم تمت » ٠

ـ « كلماته ستبقى » ٠

« ومثاله » همست لنفسها « لقد نظر الرجال عاليا اليه ‥ وسطعت عظمته في كل عمل ٠ مثاله ‥ »

« حقا مثاله ايضا ٠ مثاله ٠ لقد نسيت ذلك » ٠

ـ « ولكنني لا ‥ لا استطيع ‥ لا يمكنني التصديق ‥ ليس بعد ٠ لا استطيع ان اصدق انني لن اراه ثانية ، ان احدا لن يراه ثانية ابدا ابدا ابدا » ٠

ومدت ذراعيها كما لو انها تتبع شبحا متراجعا ٠ مدتهما سوداوين بقبضتين شاحبتين مطبقتين عبر ضوء النافذة الضيق الخابي ٠ دون ان تراه ابدا لكنني رأيته بوضوح كاف عند ذلك ٠ سأظل أرى ذلك الشبح البليغ ما حييت وسأظل اراها ايضا ظلا مأسويا مألوفا يشبه في تلك الايماءة ظلا آخر ، مأسويا ايضا مزينا بتعاويذ باطلة يمد يدين عاريتين فوق التماعة النهر الجهنمي نهر الظلام ٠ ثم قالت فجأة بصوت خفيف جدا ٠

ـ « لقد مات كما عاش كانت نهايته » ٠ قلب وبداخلي يعتمل غضب أبكم « جديرة بحياته » ٠

« وأنا لم اكن معه » تمتمت وتوارى غضبي خلف شعور من الشفقة المطلقة ٠

ـ « كل ما يمكن فعله ‥‥ » غمغمت قائلا :

ـ « آه ولكنني أؤمن به اكثر من اي شخص على وجه الارض ‥‥ اكثر من أمة اكثر من ‥‥ نفسه ٠ لو كان بحاجة الي لكنت اختزنت كل تنهيدة كل كلمة كل اشارة كل نظرة » ٠

وشعرت كأن قبضة باردة تطبق على صدري ٠

« كلا » قلت بصوت مكتوم ٠

- « اغفر لي ذلك فقد ٠٠ فقد ٠ حددت عليه طوال هذه المدة بصمت ٠٠ بصمت ٠٠ بقيت أنت معه ٠٠ حتى النهاية ؟ انني افكر بوحدته لن يقترب احد من فهمه كما كنت سأفهمه ٠ ربما لا احد يفهم ٠٠ »

« حتى النهاية » قلت بغير ثبات « لقد سمعت كلماته الاخيرة ٠٠ » وتوقفت مذعورا ٠

« اعدها » تمتمت برنة قلب كسير « انني أريد ٠٠ أريد ٠٠ شيئا ٠٠ شيئا ٠٠ احيا به » ٠

كنت على وشك الصراخ بها « الا تسمعينها ؟ » كان الغسق يكررها همسة ملحاحة حولنا همسة بدت تكبر متوعدة كالهمسة الاولى لريح صاعدة « الرعب ، الرعب » ٠

« كلمته الاخيرة ٠٠ لا جبا بها » قالت مصرة : « الا تفهم لقد احببته ٠٠ احببته ٠٠ احببته » ٠

ووازنت نفسي وقلت ببطء :

« كان آخر ما تفوه به ٠٠ هو اسمك » ٠

وسمعت تنهيدة خفيفة سكن قلبي بعدها ، توقف كالموت بفعل صرخة جذل ورعب ، بفعل صرخة تصر غامض وحزن أبكم ٠

« لقد عرفت ٠٠ كنت متأكدة ٠٠ »

عرفت ، كانت متأكدة وسمعتها تنتحب كانت قد اخفت وجهها بيديها ٠ وبدا لي المنزل سينهار قبل ان استطيع الهرب ، ان السماء ستسقط فوق رأسي لكن شيئا لم يحدث فالسماء لا تسقط لمثل تلك الترهة ٠ وانني لأتساءل فيما لو سقطت ان كنت قد قدمت لكورتز العدل الذي كان يستحقه ؟ ألم يقل انه لا يريد أكثر من العدل ؟ لكنني لم أستطع ، لم أستطع أن أخبرها ٠ لكان ذلك قاتما جدا ٠٠ قاتما جدا ٠٠ »

توقف مارلو وجلس على حده صامتا غير محدد الملامح متخذا وضع بوذا المتأمل لم يتحرك أحد لفترة ٠

« لقد فاتتنا بداية الجزر » ٠ قال المدير فجأة ٠ رفعت رأسي وحجزت ضفة من الغمام الاسود مرأى البحر عنا وانساب التيار الهادىء نحو النهايات العظمى كئيبا تحت سماء ملبدة بالغيوم بدت متجهة نحو قلب ظلام عظيم ٠